

الشرطي

صلوات على الشاطيء



916.21:Sh53sA

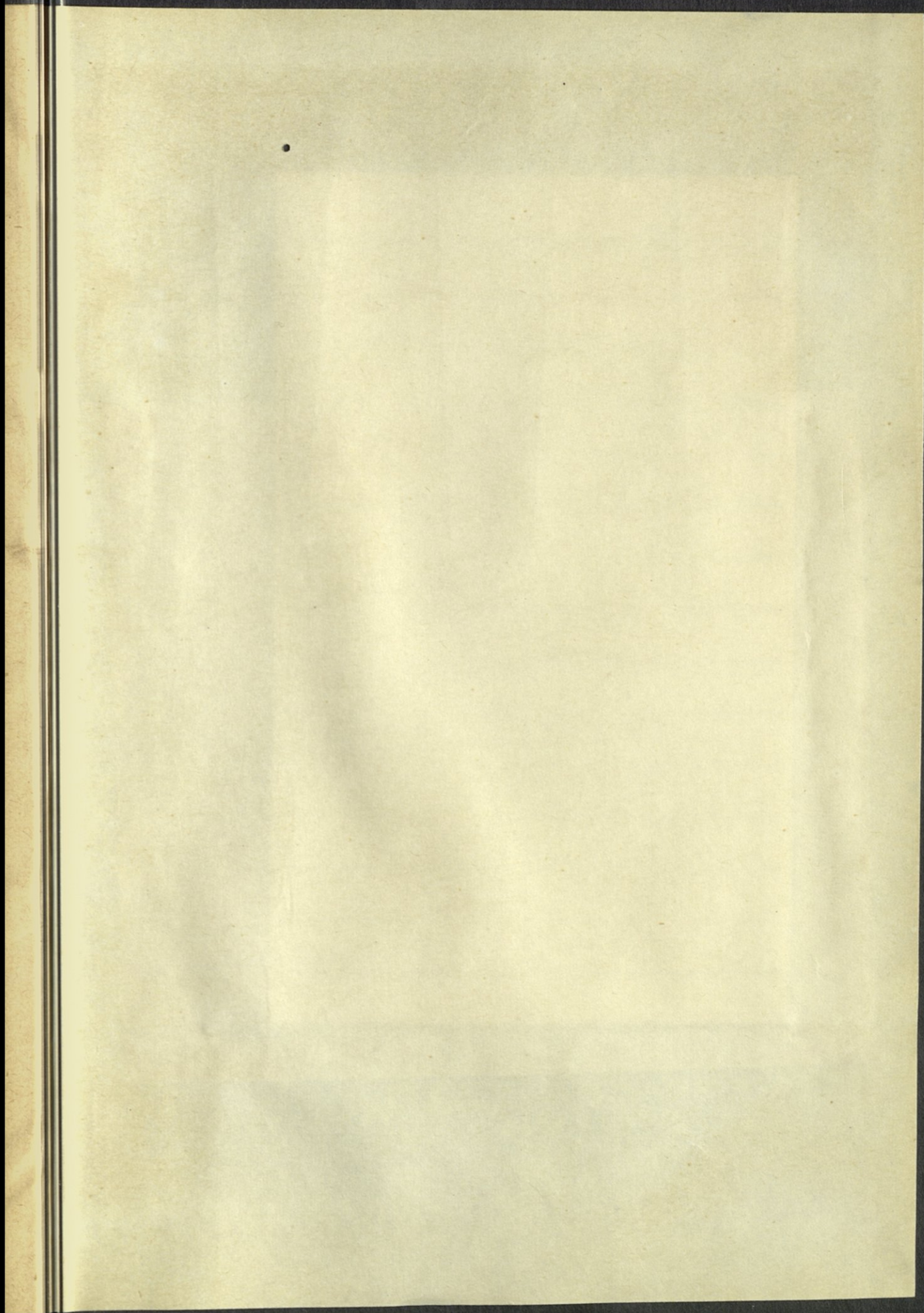
• الشرباصي ، احمد •

• صلوات على الشاطي •

916.21

Sh53sA

~~WY 24~~



916.21

Sh53sa

C.1

أحمد الشرباصي



# صَلَوَاتٌ عَلَى الشَّاطِئِ

“ إلى رأس البر... ”

القاهرة

منبعة دار الكتاب العربي

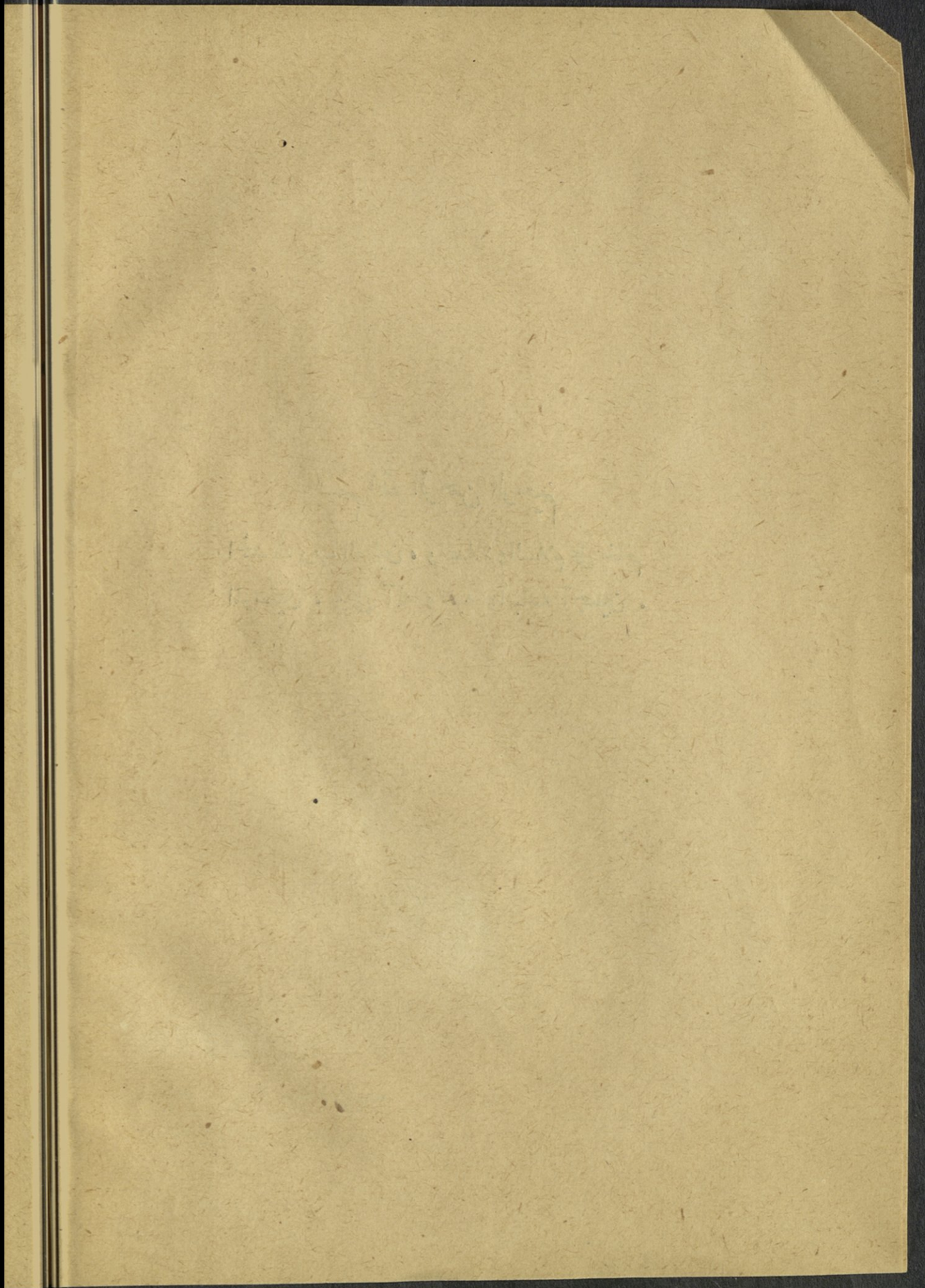
١٩٥١



الطبعة الثانية  
حقوق الطبع محفوظة للمؤلف  
١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

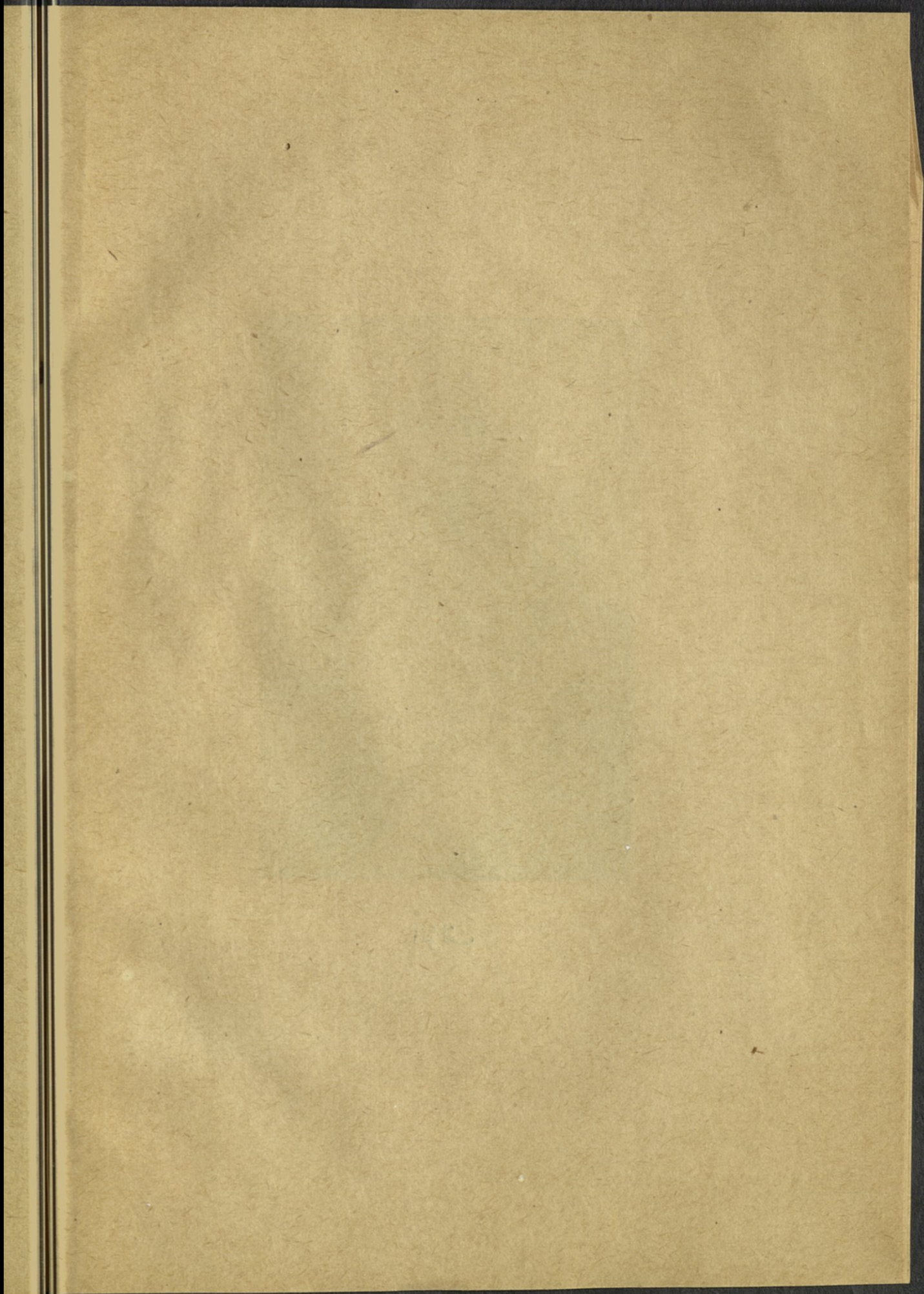
الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم  
المرسلين ، وعلى آله وصحبه وأتباعه أجمعين .





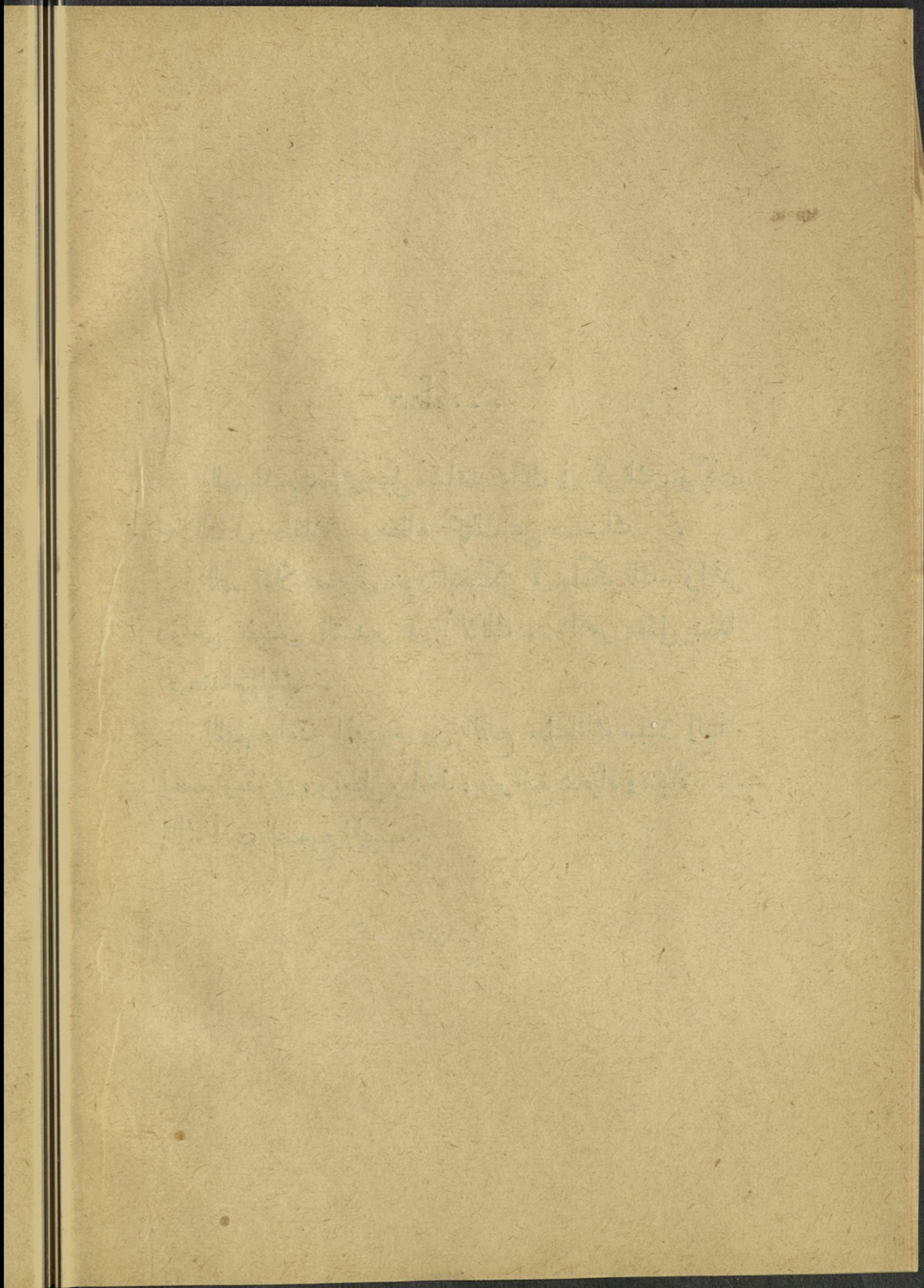


المؤلف

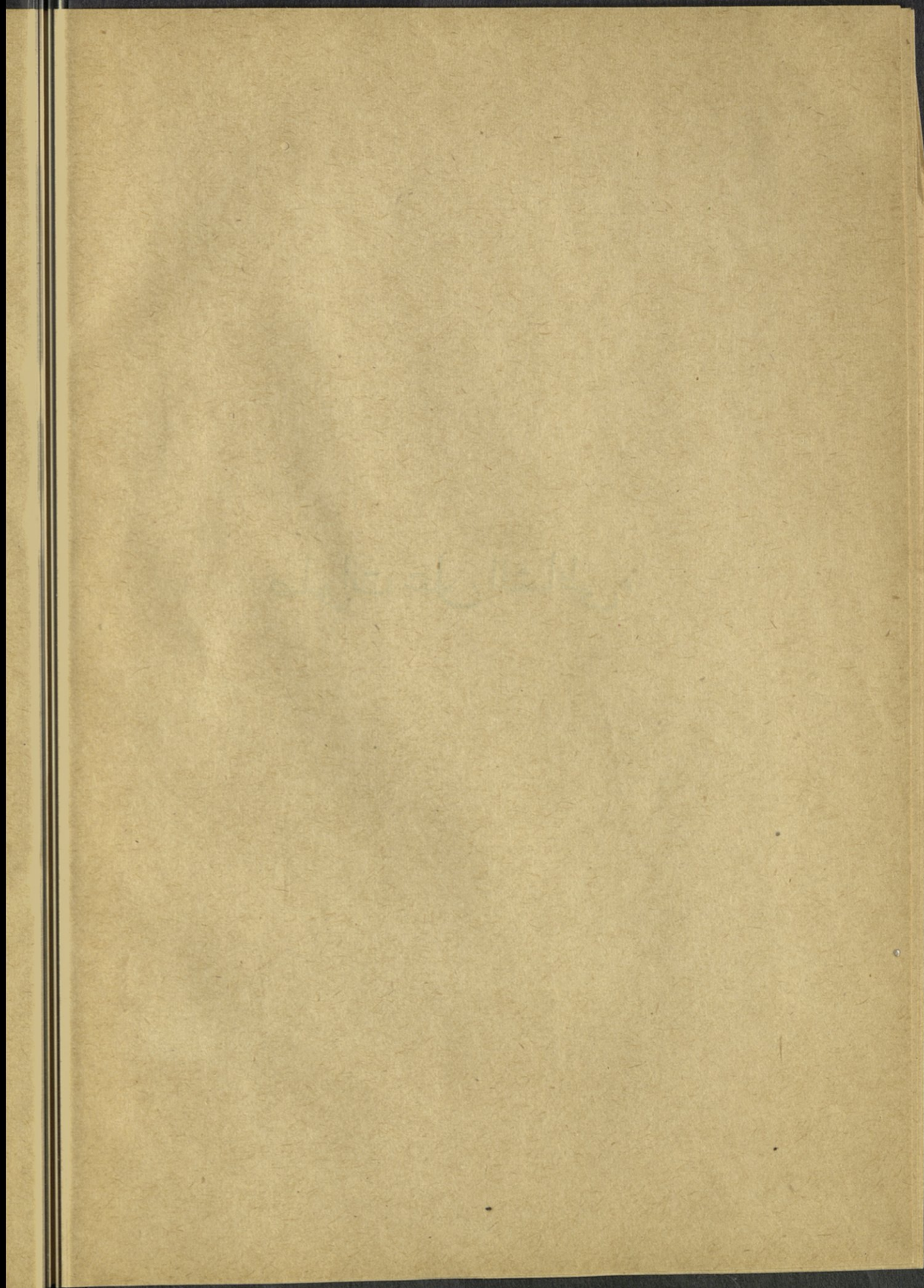


## دعاء . . .

اللهم افتح بصري على مشاهد جمالك في كونك ، وآيات  
جلالك في خلقك ، ومظاهر كالك على صنعتك . . .  
اللهم املاً بصيرتي بنور التفكر في ملكوتك ، واغمر  
روحي بفيض التدبير في آلائك ، واعمر عقلي بسنن  
الاهتداء إليك . . .  
اللهم وامنح المحروم من التمتع بطيباتك سييلاً إليها ،  
ليصح ويقوى ، ويعطى ويأخذ ، ويرتفع بمجياه ودنياه . . .  
إنك أنت السميع المجيب .



صلوات على الشاطيء



## تمهيد

أدب الطبيعة في اللغة العربية قليل محدود ، لا نجد من آثاره إلا الشواهد المنثورة ، أو القطع المطمورة ، التي قد نلقاها ، أو نعثر عليها ، بعد طول بحث وتنقيب ، فإذا ماظفرنا بشيء من هذا في قديم أو حديث هللنا وكبرنا ، كأننا قد كشفنا كنزاً ، أو عرفنا سراً محجباً من أسرار الكون ، مع أن الواجب هو أن تشغلنا الطبيعة بنفسها ومظاهرها حتى تستحوذ على قلوبنا وأقلامنا ، لأنها أم الأديب العظمى وملهمته الأولى .

وأدب الشواطيء في لغتنا أقل وأندر ، مع أن الطبيعة الجواد قد منحتنا من نعم هذه الشواطيء ما كان جديراً بأن يهز منا المشاعر ، ويحرك الأوتار ، وينطق الألسنة ، ويجري الأقلام .

وهذه فصول وصور أدرت فيها الحديث عن أحد شواطئنا ، وهو شاطئ رأس البر . ولست أذهب مع الوهم فأدعي أنها جديدة أو وحيدة ولكني أقول في استحياء : إنها لبنة متواضعة في هيكل أدب نرجو أن يزدهر وينمو ، وأن يكون عماده الالتفات إلى هذه الطبيعة لدراستها وتصويرها شعراً ونثراً بصورة واسعة شاملة .

إنه جهد مقل ، وجهد المقل في الميدان البكر مقبول إن لم يكن  
مشكوراً ، فحسبي من هذه الفصول أن تثير في قارئها فكرة الالتفات  
إلى ما في هذه الشواطي من آيات تستحق التسجيل . . .

وليس يعنيني كثيراً بعد هذا : أفعال إعجاب القارئ ورضاه ، فيصفق  
لها ويهتف ، أم تثير حفيظته ونقده ، فتدعوه إلى الإتيان بما هو أجود  
منها وأجمل !! .

أحمد السرباصي



إلى رأس البر

سبتمبر سنة ١٩٤٦ م

( ١ )

## بين الأمس واليوم

منذ عشر سنوات ، وفي أواخر أغسطس سنة ١٩٣٦ م على وجه التحديد ، قصدت إلى مصيف رأس البرّ الجميل الهادئ مستطباً ومستجماً وأثرت في نفسي هذه الرحلة يومئذ على الرغم من قصرها تأثيراً بليغاً ، وأجرت قلمي بفصل أدبي طويل قيّدتُ فيه خواطري ، وصوّرتُ أحاسيسي ومشاعري ، وعرضت ما دار بخلدِي وما احتاج بفؤادي حينئذ . وقد نشرت هذا الفصل عقيب الرحلة في مجلة « السياسة الأسبوعية » تبعاً ، ثم ضمته أحد كتبي التي أصدرتها في أول عهدى بالأدب (١) .

وقد قوبل هذا الفصل الأدبي من بين فصول الكتاب المختلفة بالحمد والثناء ، والرضا والقبول من كثير من النقاد والأدباء ، حتى قال فيه أحد الأصدقاء : « إنه أجمل ما في الكتاب ! » . ولم يكن ذلك فيما أعتقد أنا لقوة الفصل وجدّته ، أو لعبارته وبلاغته ، بل لأنني تركت فيه نفسي على سجيتها وطبيعتها ، ترى فتخبر ، وتُحس فتصور ، وتشاهد

(١) كتاب « محاولة » . وقد ظهر سنة ١٩٣٧ م . وقد نفذت نسخته .

فتسّم ، وتبصر فتصّف ، وتفرح فتسكب فرحها في عباراتها ، وتألّم  
فتوقد ألفاظها بنار أحزانها ! . . .

والواقع أنه لن يخلد لأديب أو لِمَفَنَّ أثر من الآثار ، أو عمل من  
الأعمال ، إلا إذا كان قطعة من قلبه وروحه ، وجزءاً من نفسه وحسه .  
ولقد قيل لبعض العرب : متى يكون القتي بليغاً ؟ فقال : إذا وصف  
هوى حياً ! .

وهأنذا بعد عشر سنوات طويلات ، حافلات بمختلف الحوادث  
الصغار والجسام ، مثقلات بالعجائب والغرائب ، مضميات لأهلها  
بإصباحها وإمسائها ، مدنيات لأحيائها من مصائرهم وحفائرهم ، وإن  
حسبوها امتداداً لأعمارهم ، أو سعة في تاريخهم وأخبارهم . . . هأنذا بعد  
ذلك الزمن الطويل عند التدبر والتفكير ، والاجترار والاعتبار ، القصير  
في حساب الدنيا ودورة الفلك وركب الحياة . . . هأنذا بعد عشر سنوات  
كاملات أعود إلى مصيف رأس البر الحبيب !! .

ما أسرع الأيام في مرورها ، وما أعجل الليالي في تكرارها ، وما أغفل  
بني الإنسان عن سير الزمان ! .

هذه الأعوام العشرة ما أطولها وما أجملها . . . لمت شعري ، هل  
يستطاع السبيل إلى إحصاء كل ما كان فيها من خير وشر ، وقول  
وعمل ، ونوم ويقظة ، وإقدام وإحجام ، وعبادة وإفساد؟ .

إنها لتتكون من عشرة أعوام ، وكل عام عند الله كطرفة عين  
أو أقل ، ولكنه في قائمة حسابنا طويل عظيم . . . عام فيه اثنان  
وخمسون أسبوعاً أو يزيد ، وفيه ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً ، وفيه  
ثمانية آلاف وسبعمائة وستون ساعة ، وفيه أضعاف أضعاف هذه  
الآلاف من الدقائق ، وأضعاف أضعاف دقائقه من الثواني ؛ فكم  
رَوْحَة للإنسان فيه وكم غدوة ؟ وكم ثوب لبسه أو نزعته ؟ وكم من يقين  
أدركه أو شك وسوست به نفسه ؟ وكم من نومة نامها ، وجلسة جلسها ،  
ومشيئة مشاها ؟ وكم من أكلة أكلها ، وشربة شربها ؟ وكم ضحكة أرسلها ،  
وسخرية أتاها ؟ وكم دموعه ذرفها ، أو زفرة رددتها ؟ وكم كلمة قالها ، أو فكرة  
رأها ، أو عزم أقدم عليه ؟ وكم موعد أخلفه ، وصديق غدر به ؟ وكم  
موبقة اقترفها ، أو حسنة أتاها ؟ .. وكم علم تعلمته ، وهدى اهتديت به ،  
وأستاذ تعلمت له وهرعت إليه ، ورفيق سعدت معه ، وصديق شقيت  
به ، ومشهد مررت عليه ؟ .. بل كم مرَّ بالعالم من أمور وحوادث ! ..  
كم دولة قامت ، ودولة بادت ؟ وكم أسر فنيت ، وأخرى عمَّرت ؟ وكم  
من حرَّ أصبح ذليلاً ، وكم من ذليل أصبح سيداً ؟ .. وكم وكم وكم ! ..  
يا لله ! .. إن الإنسان هنا ليشفق على نفسه ، ويمسك رأسه  
بيديه خوفاً من الدوار والصداع ، حينما يستعرض أجزاء هذا العام الواحد  
المتتابعة ، ويتذكر ما فعله خلال أيامه جزءاً جزءاً شيئاً شيئاً ، وخطوة

خطوة ومرحلة مرحلة . ويخيل إليه حين يشط به التذكر والاجترار أنه  
يهوى من شاهق مرتفع إلى مهوى عميق ، يصادفه في سقوطه وهويته  
وانخفاضه أشباح وتهويل ، وألوان وأشكال ، وصور مختلفة ، ومناظر  
متباينة ، تصدمه من يمينه وشماله ، وأمامه وخلفه ، وتحت وأعلى ، وهو  
مبهور الأنفاس ، مرتجف الفؤاد ، مرتعش الأعضاء ، مأخوذ اللب ،  
لا يتبين مكانه ولا نفسه ، ولا يستطيع التثبت بشيء حوله ، أو التثبت  
من حقيقة أمر يلقاه ؛ فكيف له إذن باستعراض عشرة أعوام طوال  
عراض ثقال كبار ؟ ، وكيف له — لو أراد — باستعراض عمره الطويل  
الذي يتكون من عشرات الأعوام لامن عشرة واحدة فحسب ، والذي  
ملاه بالسيئات والردائل ، والمنكرات والمآثم ، وقد شغل بيومه ، ونسى  
أمره ، وغفل عن غده ، وأفرط في شهواته ، وفرط في قرباته ، ولم  
يفكر يوماً في حساب نفسه ، ولم يحش حيناً عقاب ربه ، فلم يكن له  
رادع في مثل ما حكاه مالك بن دينار ، قال : سمعت الحجاج يخطب  
وهو يقول :

« رَحِمَ اللهُ امرأً حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره .  
رَحِمَ اللهُ امرءاً أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به . رَحِمَ اللهُ امرءاً  
نظر في مكيماله . رَحِمَ اللهُ امرءاً نظر في ميزانه ! . » فما زال يقول  
حتى أبكاني ! .

ولم يكن له وازع أو واعظ من قول الحسن : « أدركت أقواماً ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ، ولا يتأسفون على شيء منها أدبر ؛ ولهي كانت أهون في أعينهم من هذا التراب الذي تطأونه بأرجلكم . إن كان أحدهم ليعيش عمره كله ما طوى له ثوباً ، ولا أمر أهله بصنعة طعام قط ، ولا جعل بينه وبين الأرض شيئاً قط ؛ وأدركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم . إذا جئهم الليل فقيام على أطرافهم ، يفتشون وجوههم ( يعني السجود ) ، تجري دموعهم على خدودهم ، يناجون ربهم في فكاك رقابهم . إذا عملوا الحسنة فرحوا بها ودأبوا في شكرها ، وسألوا الله أن يتقبلها . وإذا عملوا السيئة أجزتتهم وسألوا الله أن يغفرها لهم . والله ما زالوا كذلك وعلى ذلك ، ووالله ما سلموا من الذنوب ، ولا نجوا إلا بالمغفرة » ! .

رحمك اللهم رحماك ! جهلنا قدرك ، ونسينا أمرك ، وألهتنا أعراض ووقدتنا أمراض ، للجسد منها نصيب وللنفس منها أنصبة ، ومرت بنا الحوادث والأحداث ، يقودها ركب الحياة ونحن عنه غافلون ، كأننا ننام في كن مكنون ، لا توقظنا الأيام ولا تفرعنا السنون ! .

وى يا هذا ؟ ! ويا عجباً لك كل العجب !... أحسبها خشبة منبر أو حلقة إرشاد ، فوقفت خطيباً واعظاً ، تذكر بالأيام والمثالات ، وتزجر بالعبير وتردع بالآيات ، وتلبس للناس ثوب النصيحة في كل مكان ، حتى في موطن النزهة والاستجمام ؟ ! .

لا لا ، لست هنا حيث وقفاتك وشطحاتك ، وعبرك وعظاتك ،  
وخطبك ومقالاتك ، وإنما أنت هنا في الطريق إلى رأس البر ! !  
إلى رأس البر أيها الرجل ، فالصحب يستعجلونك ، والوقت يخونك ،  
والركب على أهبة المسير ، وأنت غاد على موسم من مواسم الطبيعة ،  
يفلح فيه الشعر والخيال ، ولا تفلح فيه الفلسفة وتعقيد الأفكار .  
فدع عنك ما أنت فيه ، ولا تثقل على نفسك وغيرك بما تبديه ، وأبق  
على آرائك وأهوائك ، وخذ نصيبك من اللذة والمتعة مع خلانك  
وأصدقائك ، ولا تضيع في الأوهام عمرك ، ولا تقف على الأشجان  
أمرك ، ولا تكن كداخل على الندامى يلطم ! ! .

\*\*\*

وخرجت من قريتي الجميلة « البجلات » التي تقع وسط حقولها  
الزاهية ومغارسها الباهية ، فكأنها كوكب أرضي منير ، تحيط به هالة  
من الشجيرات والأزاهير ! ! .

خرجت من « البجلات » عروس الدقهلية ، القرية الجميلة الحلوة  
المنطقة بالأشجار الصغيرة الخضراء .

خرجت من هذا الوطن الحبيب ، مسقط الرأس وملعب الصبا ،  
ومدرج الأحلام ومسترد الشباب :

بلاد بها نيطت على تمامي وأول أرض مس جلدي ترابها !  
خرجت من هذا الوطن الذي دلّ على فأسرف في الدلال ،

وحرمني الكثير ، وإني به لمستهام وإليه مشوق ، ففيه ذكريات  
طفولتي ، والصفحات الأولى من حياتي ، وفيه الأهل والآل ، والصحب  
والخلان ، وأخدان المكتب والمدرسة ، والبيت والشارع ، والحقول  
والملاعب ، وما فيه موضع إلا ولي به صلة من صلوات الروح أو البدن ،  
وما من بقعة فيه إلا ولي فيها ذكريات وتاريخ :

جبل التوباد حياك الحيا	وسقى الله صيانا ورعى
فيك ناغينا الهوى في مهده	ورضعناه فكنت المرضعا
وحدونا الشمس في مغربها	وبكرنا فسبقنا المطلعا
وعلى سفحك عشنا زمنا	ورعينا غم الأهل معا
هذه الربوة كانت ملعبا	لشباينا ، وكانت مرتعا
كم بنينا من حصاها أربعا	وانثينا فحونا الأربعا
وخططنا في نقا الرمل ؛ فلم	تحفظ الريح ، ولا الرمل وعى
كلما جئتك راجعت الصبا	فأبت أيامه أن ترجعا
قد يهون العمر إلا ساعة	وتهون الأرض إلا موضعا !

\*\*\*

خرجت في رفقة موافقة مصادقة ، قد تعارفوا فتآلفوا وتقاربوا  
فتحابوا ، وصار مبدؤهم في صداقتهم ما روى عن الصوفية حين قالوا :  
إذا قال لك صاحبك : هيا ، فقلت له : إلى أين ؟ فلست بصديق ! ..



فهم والله من تدانيتهم وتصافيتهم ، وأخوتهم ووحدتهم ، كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها ، ولا يمايز بين أجزائها ، ولا يرى فيها فاصل ومفضول ، أو محبوب ومرذول ! .

ولكن الزمان الذي لا تراح عينه إلى مناظر السعادة ومجالى الهناء ، أبى إلا أن يضم إلى هذا الجمع الكريم الحبيب دخيلا ثقيلا فرض نفسه على الرفقة فرضاً ، فكلفنا من أمرنا شططا ، وحاولنا جاهدين أن نحتمل خطبه ، أو نهون على أنفسنا كربه ، فما استطعنا إلى ذلك سبيلا ! ... ورددنا ما كان يقوله أبوهريرة رضى الله عنه إذا رأى رجلا ثقيلا : اللهم اغفر له ، وأرحنا منه ! . وقول الذى قال : إذا كنت فى الصلاة ، وكان عن يسارك ثقيلا ، فتسليمة عن اليمين تجزئك ! .

وتمكن هذا الفضولى الطارى الذى لم نعرف له بابا ، ولم نحسب له حسابا ، أن يعكر على الجماعة صفوها ، وأن يخلط نعيمها بأوشاب من السوء وأخلاق من الوحشة ، فكانت الطبقة الأخيرة فى قول المؤمن : « الإخوان ثلاث طبقات : طبقة كالغذاء لا يستغنى عنه ، وطبقة كالدواء يحتاج إليه ، وطبقة كالداء لا يحتاج إليه » ! .

وهنا تذكرت فاعتبرت ، تذكرت كيف يستطيع الشر القليل أن يفسد جوانب كثيرة من الخير ، وأن يشوه معالم جهات عديدة من الجمال ، وأن يتلف مظاهر كثيرة من الحق ؛ ولقد تحتمل بجملة أشخاص خيرين

طاهرين ، وتقفهم على إصلاح شخص فاسد طالح ، فلا يستطيعون حيلة ولا يبلغون غاية ، ولكن حاول العكس ، وكل إلى شرير واحد مهمة إفساد جماعة أو طائفة ، وانتظر النتيجة فستروعك بعد قليل ! . . .  
ستجده وقد نجح في مهمته ، وأفلح في رسالته ، ووصل إلى غايته ، فبذر بذور الفساد في نفوس أولئك الصالحين حتى فسدت وأنتنت ، وأطلق غرابان الضلال في صدورهم فعششت وباضت وأفرخت . . .  
ولهذا كانت دعوات الإصلاح منذ وجد الإنسان قاسية عنيفة ، لها تكاليفها وتبعاتها ، ولا ينهض بها إلا من أوتي العزم الحديد والصبر الجليل ، والحلم الدائب والإيمان الغالب ، وقد ينجح أحيانا بعد طول الكفاح والنضال ، وقد لا ينجح في أكثر الأحيان مع أنه لم يدخر وسعا في سبيل الجهاد ! .

ولهذا كانت نزوات الهدم وعوامل التخريب هينة ميسورة ، يأتيها كل لئيم زنيم ، ويصرفها كل صعلوك حقير . وهكذا شاءت إرادة ربك أن يجعل طريق الخير محفوقا بالأشواك مليئا بالعقبات ، وأن يجعل طريق الشر محفوقا بالشهوات مليئا بالأهواء ، وأن يجعل الهداية أمراً صعباً عسيراً ، وأن يجعل الغواية شيئاً هيناً ميسوراً : « إنك لا تهدي من أحببت ، ولكن الله يهدي من يشاء » ، « لو أنفقت مافي الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم » . وقال الرسول

الكريم عليه الصلاة والتسليم : « حُفَّت الجنة بالمكاره ، وحفت النار  
بالشبهوات » . ولأمر ما أثر عن الأولين : النعمة تخص والنقمة تعم !...  
وجلَّ مصرّف القلوب ومدبر الأمور ، إنه هو العليم الحكيم ! .  
فلنحتمل ذلك الضيف الثقيل مكرهين ، ولنصبر على سفاوته  
مرغمين ، فما هنالك بد مما ليس منه بد ، والله الأمر من قبل ومن بعد ،  
ولعله ابتلاء من الله واختبار ، أو تأديب وتهذيب ، ليلونا أنشكر  
أم نكفر ، ونصبر أم نجزع ، وليرينا بجوار ما نحن فيه من نعيم عظيم  
لونا من الشر البغيض ، لنقارن بينهما فنعرف مقدار كل منهما ،  
وبضدها تمييز الأشياء ! . . . .

(٢)

## في الطريق

وركبنا عربة يقولون عنها إنها « سريعة » ويسمونها « الديزل »  
وهي من قطارات السكة الحديدية للوجه البحري ، ويسمونها « قطارات  
الدلتا البلجيكية » . . . . . فأين السرعة المزعومة أيها المخادعون الذين  
يمتصون دماء الفلاح ، ويسلبونه ماله وجهده ووقته وهدوءه وأعصابه  
ثم لا يعطونه شيئاً ؟ . . . أين السرعة المزعومة أيها السارقون الذين دخلتم  
مصر غرباء دخلاء ، فقراء أذلاء ، فاستعمرتم واستعبدتم ، وتاجرتم  
فامتلاتم ، واستحوذتم على المصانع والمتاجر والشركات والهيئات ،  
ومنابع الثروة ومصادر المال ، واتخذتم مصر الدليلة المسكينة بقرة  
حلوباً تسقيكم من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ، ثم يكون  
جزاؤها منكم بعد ذلك أن تضربوها الضرب الأليم ، وتسوموها سوء  
العذاب ؟ ! .

وما هذه القذارة والوساخة والحقارة أيها الجشعون المحتكرون ،  
أيها الآكلون للسحت الغاصبون للحقوق المضيعون للواجبات ؟ . . . .  
عربة حقيرة صغيرة ، بالية واهية ، حشروا فيها الراكبين حشراً ،

فاختلط القدر بالنظيف ، والمر يرض بالصحيح ، والرجل بالمرأة ، والتصقت  
الصدر بالصدر ، والظهور بالبطون ، والأفواه بالأفواه ، والوقت صيف ،  
والحر شديد ، والعرق سيال ، والجو صالح لنشاط الجراثيم ، والهواء مليء  
بجنود العلل وكتائب الأوبئة ، ورائحة « النفط » المحترق تتصاعد مع  
الدخان فتقذى العيون وتضايق الأنوف وتخنق الصدور ، وتزيد الأمر  
سوءاً على سوءه ، وبلاء على بلائه ، والمقاعد ملطخة ببقايا الزيت الأسود ،  
وأرض العربة ملوثة مملوءة بالقمامات والفضلات والأفذار ، وجدرانها  
محملة بالتراب والغبار ، وفضاؤها محشود بجيوش البعوض والذباب ،  
وكانها ( اصطبيل ) حيوانات أو حظيرة بهائم ، لا مركبة مسافرين من  
بنى آدم ، وكانهم لم يدفعوا لأهل القاطرة أجراً جمعوه بعرقهم ودمهم ...  
وها هو ذا ماء خزانة العربة يسيل قطراتٍ متتابعة فوق الرؤوس  
والكواهل ، والعربة « السريعة ! » تسير بطيئة رديئة كثيبة ، تتلصق  
في سيرها كأنها تسير إلى حتفها أو قبرها ... وبعد خطوات — ولا تقل  
مراحل — تقف العربة عن المسير ، وتنبين الأمر فإذا هو عطب فيها  
احتمال له السائق فلم يفك عقده ولم يزل علتها ، ودُعينا نحن الراكبين  
إلى أن نساعد بأيدينا ، لندفع العربة إلى الأمام حتى تتحرك محرركاتها  
وتسير! ... وهكذا دواليك! ...

والأعجب من هذا كله أن الراكبين راضون بذلك كله ، أو شبه

راضين ، فلا شكوى ولا نجوى ، ولا تألم أو تبرم ، ولا انتقاد أو  
اعتراض ، كأنما قد تعود الشعب في سنوات الاحتلال الطويلة على  
الذلة والمهانة ، فليصب عليه أعداؤه أو حاكموه الهوان صبا ، وليذيقوه  
عذاب السعير ألواناً ، فهو راض صابر ، حامد شاكر ، لا يفكر في ارتفاع  
أو اجتماع ، ولا يحاول لنفسه ترقية أو تهذيباً ، لطول ما ألقى عليه أعداؤه  
من الأثقال التي أماتت حسه وأفقدته شعوره ، وجعلته كالحیوان الأعجم ،  
الذي لا يتألم ولا يتبرم ! ..

وصدق الذي قال : « قضى على الشرق أن يهبط بعد الارتفاع ،  
ويذل بعد الامتناع ، ويكون هدفاً لسهام المطامع والمطالب ، تعبت به  
أيدي الأجانب ، من كل جانب ؛ فمنهم من يُغير عليه بحجة الغيرة على  
الإنسانية ، ومنهم من يتداخل فيه بدعوى إقامة المدنية ؛ ولم تر منهم  
من صدق في دعواه ، بل كلهم تابع في ذلك قصده وهواه » ! ..

ما هذا أيها الشعب الذليل المسكين ؟ ما هذا أيتها الأمة الراقدة  
الراكدة البائدة ؟ ما هذا أيتها الأشقات المبددة ؟ ما هذا أيتها الأغنام  
السائمة والجموع المستعبدة ؟ .. أما لهذا الذل من آخر ؟ أما لهذه العبودية  
من نهاية أو غاية ؟ ..

استيقظ أيها الشعب وتنبه لحقوقك وأملاكك ، واسترد مالك عند  
غاصبيك ، وإن أبوا عليك ما أعطاه الله لك فشقّ قلوب قاتليك بمحرثك

ومسحاتك ومنجلك ، كما تشق الأرض الحامدة في يسر وسهولة !  
تحرك أيها الشعب فأنكر هذه المآسى ، واعترض على تلك المساخر ،  
وانتقد تلك المفاسد ، وطالب بما يجب أن يكون لك من حياة كريمة  
ومنزلة سامية ، وحرية كاملة واستقلال صحيح ، ومعيشة تليق بك كإنسان  
يحيا في القرن العشرين : قرن الحقوق الشخصية ، والعزة الفردية  
والاجتماعية ، قرن النور والمدنية ، قرن الترف والنعيم !  
إنك جاهل أيها الشعب ومن حَقك أن تتعلم ، فمتى تحقق لنفسك  
هذه الصفة ، ومتى تطالب بها حاكمتك والمشرفين عليك ؟ . وإنك  
مريض أيها الشعب ومن حَقك أن تصح وتقوى ، فمتى ترغم الذين  
يتولون شؤونك على أن يطبوا لك ويعالجوك ؟ . وإنك جائع وفقير  
أيها الشعب ، بينما يُتَخَم غيرك بالطعام ألواناً وأشكالاً ، وبينما يسلبك  
غيرك طعامك وغذاءك ، فمتى تأخذ منهم هذا الطعام المسلوب رغبة  
أورغبة ؟ ! .

وأين رقابة الحكومة الساهرة على هذه الشركات الأجنبية والهيئات  
الاستغلالية ؟ أين حساب ولاية الأمور الشديد لأولئك الذين يُحسنون  
الجمع ولا يحسنون القسمة ، وأولئك الذين يحسنون السلب والنهب  
والابتزاز ، ولا يحسنون المعاملة أو السلوك ؟ . ومتى يتخلص الشعب  
المحرور المأزوم من هذه الجرائم الفتاكة ، وتلك الديدان الأجنبية ،

وذلك الاحتلال الاقتصادي المرعب؟ .. حسبنا هذا السؤال فما بنا من  
قدرة على الجواب ، لطف الله بنا عند الحساب ! ! .

إنه وطني أيها الناس ، إنه وادي النيل الخصيب ، وإنه لأعز عليّ  
من كل ركن في الوجود :

وأشهد لا أنساه ما عشت ساعة      وما انجاب ليل عن نهار يعاقبه  
ولا زال هذا القلب مسكن لوعة      بذكراه حتى يترك الماء شاربته !  
وما أثور به هذه الثورة ، أو ما أثور عليه هذه الثورة ، إلا الحرص  
على خيره ، وحبى لمجده ، وجهادى فى سبيله ؛ وغاية رجائى أن أعيش  
حتى أراه عزيز الجانب مصون الحرمة ، موفور الكرامة ، منعماً بالحرية  
والاستقلال ! .

إنه وطنى ، والوطن غال عزيز ، ولقد قال جالينوس : يتروّح  
الليل بنسيم أرضه ، كما تتروح الأرض الجذبة بيل المطر ! . وقال  
شوقى العبقرى :

إنى أحب — وإن شقيت به —      وطنى ، وأوتره على الخلد !  
وقال ابن الرومى :

ولى وطن آليت ألا أبيعهُ      وألا أرى غيرى له الدهر مالكا  
عمرت به شرح الشباب منعماً      بصحبة قوم أنشأوا فى هنالك  
وحب أوطان الرجال اليهم      مآرب قضاها الشباب هنالك



إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم عهود الصبا فيها فحنوا لذلك  
فقد ألفتها النفس حتى كأنه لها جسد إن بان غودر هالكا  
إنه وطني أيها الناس ، والمخلص من يغار على وطنه ، ويبصّره  
بالطريق ، ويجنبه العثرات . فهل من سامع أو مجيب ؟!

\*\*\*

ما هذا أيها الرجل ؟!

كأنك تأبى إلا أن تفسد على نفسك وعلى غيرك ما أنتم فيه من  
متعة وفرحة ، فما تتخلص من مشكلة إلا لتتناول مشكلة ، وما تنهه  
من غارب فلسفة إلا لتستبد بك فلسفة أخرى ، وما تنتهي من وعظك  
وإرشادك حتى تقف خطيباً وطنياً وثائراً اجتماعياً ، يحرص على الخيرات  
ويجاهد المنكرات ! ... ألا إن لكل مقام مقالا ، فدع عنك الآن  
وعظك وخطابتك ، وكن مع الصحب فيما هم فيه ، فذلك أجدى عليك  
مما أنت فيه ، وإلا فما أشقاك بدنياك ! .

ألم تسمع الذى يقول : « لا تتم فائدة الانتقال من بلد إلى بلد ،  
إلا إذا انتقلت النفس من شعور إلى شعور ، فإذا سافر معك الهم فأنت  
مقيم لم تبح .. إذا كنت فى أيام الطبيعة فاجعل فكرك خالياً ، وفرّغه  
للنبت والشجر ، والحجر والمدر ، والطيور والحيوان ، والزهر والعشب ،  
والماء والسماء ، ونور النهار ، وظلام الليل ، حينئذ يفتح لك العالم بابه  
ويقول : ادخل ... » ؟!

ليكن لك ما تريد يا صاحبي ، ولنطو معاً هذه الصفحات السود  
إلى حين ، ولنستقبل بشائر البحر في هذا النسيم الذي يبلغ وجوهنا  
من بعيد فيصافحها مضاحفة الحبيب الرقيق ، ويمسها مس الحرير الرقيق ،  
ويداعبها مداعبة المسامر الأنيق ! ..

إن بيننا وبين البحر لعشرات من الكيلات ، ومع ذلك فما نحن  
أولاء نحس جماله وبهائه ، ونشم عييره ونتنسم هوائه ، فمرحباً بك  
أيها البحر الجميل ، وأهلاً بك وسهلاً أيها النسيم البليل ! .

وإننا لعلى قيد خطوات من النيل المبارك الذي يوازي شريط القطار  
عن قرب ، ويسايرد ويسامرهِ فيزيد الرحلة روعة ورُواء ، وسروراً  
وهناء : النيل الكريم الذي جعل صحراء الوادي جنة فيحاء وروضة  
غناء وحديقة زهراء :

صفت مرآته ، وجلاه جال	فلاح كأنه ذوب اللآلى
وغازلت الحدائق شاطئيه	وألقت فوقه خضر الظلال
فكم غصن قد ارتسمت حلاه	عليه تهزه ربح الشمال
ونخل باسقات كالعداري	تثنى في غدائرها الطوال
خلعن الحسن منعكساً عليه	فأنسن الحقيقة بالخيال
لئن كان الألى عبوده ضلوا	فرب هداية تحت الضلال <sup>(١)</sup>

(١) اهدوا أولاً إذ قدروا نعمة النيل العظمى حق قدرها ، ولكنهم أسرفوا  
فضلوا ، فستر ضلالهم هدام .

أحب النيل حب أبي وأمي وأهوى مصر فوق دمي ومالي !  
ولولا فضل الله على مصر العزيزة ممثلاً في النيل لما أزهى نبات ،  
ولا استقرت حياة ، ولا نهضة مدنية : « هو الذي أنزل من السماء ماء  
لكم منه شراب ، ومنه شجر فيه تسمون ، يُنبت لكم به الزرع  
والزيتون والنخيل والأعناب ، ومن كل الثمرات ، إن في ذلك لآية  
لقوم يتفكرون » ، « أو لم يروا أنانسوق الماء إلى الأرض الجزر فنخرج  
به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم ، أفلا يبصرون » ؟ « ونزلنا من  
السماء ماء مباركا ، فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات  
لها طلع نضيد ، رزقا للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتا ، كذلك الخروج » !.

\*\*\*

هذه مشارف دمياط : المدينة العاملة الدائبة الساهرة ، التي لا تكل  
ولا تمل ، والتي تُعد فخراً للصناعة المصرية والجِد المصري ، فما فيها عاطل  
أو متسول ، وما فيها من متكل على الأحساب أو الأنساب ، وما فيها  
شاب يأكل من عرق أبيه أو أمه وهو قادر على الاكتساب ،  
بل ينهض بتبعات نفسه وهو في الثانية عشرة من عمره ، فترى المصانع  
والمتاجر والمحلات حافلة عامرة بالرجال والفتيان ، كل يجاهد في سبيل  
القوت ، ويحارب من أجل الحياة ؛ وتدخل البيوت والمنازل فترى فيها  
المغازل والمناسج وقد جلست إليها الفتيات والسيدات ، يشاركن

أزواجهن أو أولياء أمورهن في تحمل متاعب الحياة وتكاليف العيش ! .  
هذه مشارف دمياط : الثغر الهاديء والمدينة الجميلة التي سارت  
الأنباء وضربت الأمثال بفتنة نساؤها وروعة خرائدها ، حتى ليعبر كثير  
من الأدباء الكبار عند وصف فتياتهم بقولهم :  
« فتاة كأنها من دمياط » ! .

هذه مشارف دمياط : البلدة التي قضيت فيها جانباً من شبويتي ،  
فتلقيت فيها الدروس الابتدائية بالمعهد الديني العلمي الإسلامي ، ورأيت  
فيها أياماً أرق من نسيم السحر ، وأنضر من فاتن الزهر ، وأشهى من  
يانع الثمر ، كما رأيت فيها أياماً عضوية جعلت الحياة في ناظري أضيق  
من سم الخياط ، فكأنني يومذاك جندي حُط من مقامه ، وجرد من  
وسامه ، وأرغم على تسليم حسامه ؛ وذقت فيها الشهد الخالص  
كما تجرعت السم الزعاف ، وأفادتني كما أخذت مني ، وآختني كما عادتني  
وكان لي فيها أحوال وأحوال :

كم مررت فيك عهد لست أذكره ومررت فيك عهد لست أنساه !  
هذه مشارف دمياط ، ومن بينها ذلك المستشفى البغيض الذي  
يذكرني بأسوأ الذكريات ، ويشير في خاطري أشباح العلة والمرض ،  
وتهاويل الخوف والفرع ، وغقارب الغيظ والحنق ، ففي هذا المستشفى  
المنعزل الصامت رقد شقيقي الأستاذ السعيد الشرباصي — بورك له

في عمره - أسابيع وأسابيع في سنة ١٩٤٢ م ، يجاهد العلة  
ويصارع الداء ، حتى نجا بفضل الله ورحمته . وخرج من المحنة  
القاسية راضيا صابرا ، حامداً شاكرأ ، معافى ذا كرا لله نعمته ومنته .  
وكنت يومها أحدث نفسي وأهبيء أمرى لأزوره من القاهرة حيث  
كنت أطلب العلم بكلية اللغة العربية - حرسها الله معقلا للغة القرآن  
وأدب العرب - . وكنت يومها أجد من ثورة الشباب وحماسة الفتوة ،  
والحمية الوطنية والعزة الأزهرية والغيرة على الكلية مايدفعني إلى مواقف  
ثائرة فيها مالا يرضى الكثيرين من ولاة الأمور ، قولاً وكتابة وعملاً ،  
فإذا بأولئك المسيطرين الغاشمين يرغمونني على أن أزور أخي وهو  
على سرير مرضه مكرهاً مستخفياً ، إذ طوردت في كل مكان ،  
وحوربت في حرיתי ، وراقبتني عيون كان كل همها أن توقعني تحت طائلة  
الاعتقال ، أو تنزلي ضيفاً على أحد السجون ، أو « تحجزني » على  
الأقل أياماً مريرة « تحت التحقيق » ! ..

وزمجر المستبد الطاغية قائلاً للأرصاد والأجناد : فليحلّ عليكم  
غضبي إن لم تكبلوا هذا المتمرد الجريء بالأغلال والأصفاد ، فإن  
لم تأتونني به فخذوا أتم مكانه من غيابات الاعتقال ؛ لقد نالني بالنقد  
والتجريح ، والويل لمن تحدّثه نفسه بالتطاول على مقامى الجليل !! .

\*\*\*

والويل كل الويل للناس من زمن تكال لهم فيه التهم جزافاً ،

وينسكل فيه بالأبرياء تنكيلا ، ويشرد فيه الأحرار المجاهدون تشريدا ،  
وتمسى وأنت آمن فلا تصيح إلا ومن حولك أغلال وسلاسل ، دون  
ذنب أذنبته أو جرم جنيته أو إثم أتيته ، سوى أنك تحب وطنك ،  
أو تغار على بلادك ، أو تطالب بحق من حقوق جماعتك ! ..

والويل كل الويل للناس يوم تصادر حرياتهم ، وتكم أفواههم ،  
وتقيد أقلامهم ، فعلى الصحف رقباء ، وعلى المجلات رقباء ، وعلى  
النوادي رقباء ، وعلى المقاهي رقباء ، وعلى دور العلم رقباء ، وعلى المساجد  
رقباء ، وعلى جمعيات الإسلام والبر والإحسان والعلم رقباء ، وفي كل  
منعطف ومكان يتخوف المرء من جاسوس أو شيطان ! ..

ألا فليعلمن الله تلك الأيام الأثيمة ألف لعنة ، ولتذهب إلى الجحيم  
دون عودة ، فقد فعلت بنا الأفاعيل ، وأرتنا النجوم في الظهر الظهير ،  
فإلى السعير وبئس المصير ! ..

دعني يا صاحبي دعني ! .. دعني في سبحتي وغمرتي ، فما بي  
الآن من حاجة إلى هوائك أو مائك ، وإن ذكرياتي لأعز عليّ من  
كل هذا المتاع ، فلا تعاودني بالنصح والتوجيه ، ولا تثقل عليّ  
بتكرار التذكير ! ..

لقد خرجت يومها من القاهرة مستخفياً ، قد هجرت ملابس المألوفة  
ومظهري المعتاد ، وانسلت مع البازي على سواد ، وأخذت أتفلت تحت

ستار الخفاء من أعين المطاردين والرقباء ، متنقلا بين القاهرة  
وطنطا وبنها والمنصورة وفارسكور ودمياط . . . وهناك وفي حجرة  
من حجرات هذه المصححة المنعزلة ، دخلت تحت ستار الليل البهيم على  
شقيقى وقسىمى فى غربتى ونضالى مع الحياة والأحياء ، فزادنى  
مرضه هولاً على هول ، وضاعفت علته أحزاني وأشجاني ، فألمنى  
اللقاء وأبكاني ، ولكنه ما زال بى يشع على بأمله الفسيح ، وحسن  
ظنه بربه ، وجميل صبره على أيامه ، حتى أعاد إلى إيماني ، وجعلنى  
أوقن أنها غمرة ستنجلى ، وسحابة صيف عن قليل تقشع ! ! . .  
وكذلك كان ، إذ مسحت يد الرحمن الرحيم على الجرح الأليم بالبرء  
والنعيم ، ورحمة الله قريب من المحسنين : « أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ،  
ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أإله مع الله ؟ قليلا  
ما تذكرون » ! .

أغضبت منى يارفيقى لأننى أعرضت عنك ، وآثرت عليك حق  
الذكرى وواجب الشقيق ؟ معذرة إليك ، ولك العتبى حتى ترضى ،  
فلا تؤاخذنى بما نسيت ، ولا ترهقنى من أمرى عسرا ، وإن خالفتك  
بعدها فلا تصاحبنى ، قد بلغت من لدنى عذرا ، ووالله إني لمقهور معذور<sup>(١)</sup> .

(١) من مقال للأديب الكبير الأستاذ على الطنطاوى : « ولا تقولوا إذا سمعتم  
حديثى : هذا رجل لا يتكلم إلا عن نفسه ؛ فكذلك الأدباء كلهم ، لا يتكلمون إلا عن =

هذه دمياط ، وقد كان لك فيها جولات وصبوات ، وغدوات وروحات ، منها المذكور ومنها المظمور ، فلتسر في أرجائها ، ولتطوّف بأحائها ، متأنياً متمهلاً ، أو مسرعاً متعجلاً ! .

ما بال شوارعها تبدو اليوم ضيقة ، وقصورها صغيرة غير عالية ؟ ..  
ألأنها تبدلت وتغيرت ، أم لأنى شبيت عن الطوق ، وشهدت عمائر القاهرة والإسكندرية وميادينهما الفسيحة الواسعة ؟ .. دعك من هذا وولّ وجهك شطر الفوّال الشهير « الحاج محمد التابعى مصباح » فإنك لم تفطر بعد ، ودمياط إنما سار ذكرها بسمكها وفول التابعى بين الآكلين ! .. وليت الذين يسخرون من هذا الطعام الشعبى ، ويحسبونه زادا لموائد الفقراء ، تسعدهم الأيام بأن يأكلوا منه عند ذلك الرجل الصانع !! (١) .

---

== أنفسهم ، ولكنهم إذ يصفون أحلامها وآلامها يصفون أحلام الناس كلهم وآلامهم ، فهم تراجمة العواطف وألسنة القلوب وصدى الخواطر ، حتى ليقول القارىء إذ تمر به آثارهم : ما هذا ؟ .. إن فى هذا التعبير عما أحس به ، إنه وصف لى أنا وحدى ؛ وما هو له وحده ؛ إنه وصف لكل نفس بشرية ... ألا ما أعظم فضل الأدباء على الناس ، ولكن الناس لا يشكرون ! . انظر مجلة الرسالة بتاريخ ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٤٦ م .

(١) مما نشر عن الملك فاروق الأول أنه يتناول ذلك الغذاء المصرى فى بعض الأحيان ، ولقد سئل ذات مرة عن غذاء الفول فقال : « إنه طعامى وطعام شعبى ! » .



(٣)

## هذه رأس البر

وبعد ساعات تركنا دمياط قاصدين رأس البر ، فامتطينا السفينة  
البخارية الصغيرة ( اللنش ) وما كدنا نجلس فيها حتى شمنا روائح  
المصيف ، فهذه هي السهولة في الثياب ، والتجرد مما لا حاجة إليه من  
ألوانه وأنواعه ، وهذه هي المساواة بين العظيم والصغير ، والغنى والفقير ،  
والقريب والبعيد . وها هي ذى السفينة تمخر عباب النيل الزخار ، وعن  
أيماننا وشمائلنا خمائل وأدواح نظمتها يد الخالق المبدع ، من النخيل  
وأشجار الليمون والجوافة والأنبج « المانجة » . . . فياله من منظر  
سحري ينسى المهموم همومه ، ويسلب المغموم غمومه ، ويوحى بالتفاؤل  
والبشر ، والغبطة والسرور ! . . والفضل في ذلك كل الفضل للنيل  
العظيم :

يا أرض مصر تحية وسلام      وسقائك من صوب الغمام ركام<sup>(١)</sup>  
بل أنت غانية عن المطر الذى      يهيم ، فإن النيل فيك غمام  
نهر تبارك ماؤه ، فتكاد أن      تمحى بطهر مياحه الآثام

(١) الركام : السحاب المتراكب بعضه فوق بعض .

ويكاد لو رشف العليل زلاله يُشفى العليلُ ، وتذهب الأسقام  
يحجي البلاد بمائه ، فكأنه الروح التي تحيا بها الأجسام  
إن شابه كدر ففي أ كداره صفو ، وفي فيضانه إنعام !

ولسكن ما بال السفينة تسرع على غير عادتها ، وما بالها تتأرجح  
في سيرها ؟ . إنها أمواج النيل الطاغى الذي جاء اليوم مذكراً ومؤدباً :  
« ونبلوكم بالشر والخير فتنة » ! . . . إنه النيل القهار الجبار ، الهدار  
الموار ، الذي طغى موجه وعلا صخبه<sup>(١)</sup> ، فزعزع الجسور وقوض  
الدور ، وأهلك الحرث والنسل ، وهدد البلاد والعباد بغمرة من السوء  
والعدوان ، لا يمنع سيلها إلا الرحيم الرحمن ! . إنه النيل العظيم المبارك  
الذي عهدناه وفيماً ، يأتي بميعاد ، ويسير باقتصاد ، ويروى باعتدال ،  
ويحمل إلينا الخير والبركة والنماء . . . ما باله في هذا العام قد غير خطته وبدل  
شيمته وخالف سيرته ؟ .. أم من تأثير التجارب الواسعة للقنابل الذرية —  
كما يقولون — كان هذا الفيضان حقاً ، أم أن وراء ذلك سرّاً خفياً  
وأمرّاً مطويّاً ، لو طلبناه لوجدناه ، ولو تدبرنا فيه لاتعظنا منه  
واعتبرنا به ؟ ! . . .

لقد تكاثفت الحن واشتجرت الفواجع وتراكت المصائب فوق

(١) في صيف هذا العام (١٩٤٦م) طغى النيل طغياناً رهيباً كاد يودي بالبلاد  
لولا رحمة الله وجهود البررة من أبناء النيل .

مصر ، فلم يكتف الدهر بما نلقى في وطننا وحرىاتنا وكرامتنا وأخلاقنا  
وديننا ، بل أضاف إلى القائمة فاجعة أخرى ، فتنكر النيل المبارك بعد  
طول وفاء ، وطني بعد مألوف اعتدال ، وجار بعد معروف قصد واهتداء .  
وكأنما أرادت الأقدار أن تخز جنونا ، وتصنعنا على وجوهنا هذه الصفحة  
القوية القاسية ، لعلنا نتنبه بعد طول رقاد ، ونصحو بعد عميق هجوع !  
ولكن هيهات هيهات ! .

رفقاً بنا أيها النيل ومرحمة ، فقد عهدناك أميناً وفيماً ، وهادئاً وديعاً ،  
فإن ثرت اليوم لتأديب أو تهذيب ، فاجعل ثورتك إلى حين وغضبك  
بمقدار ، ففينا الأطفال والنساء ، وفينا المساكين والفقراء ، وفينا من  
لو استطاع سيلاً إلى ما ترى من مهازل وما آثم لسعى إليها سعى الجندي  
المجهول يروم الشهادة في ميدان الجهاد ! .

وسبحانك ربي سبحانك ، جعلت كل شيء وسطاً ، وقدرت كل  
شيء تقديراً ، فلوزاد الخير — وهو خير — عن سحده لا نقلب إلى ضده .  
فجرعة الدواء — وهي دواء — لو زادت عن نسبتها المحدودة لكانت داءً  
أخطر من الداء ، ولقربت صاحبها من الفناء لا من الشفاء . وهذا ماء  
النيل ، ذهب سائل ونضار جار ، ولكنه حينما يزيد عن حد الاعتدال  
يصبح سمّاً زعافاً ، ونسكبة نكباءً تجمّش لها الجيوش ، وتُدفع كما يدفع  
البلاء . . . وهكذا كل شيء في الحياة ، إن لم يعرف قصده وحدّه

كان سوءاً وشرأ ، ونكبة وخطراً ، و « إن المنبت لا أرضا قطع ،  
ولا ظهراً أبقى » ، « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، فلن يشاد  
الدين أحد إلا غلبه الدين » ، « فسدوا وقاربوا » . وصدق التنزيل :  
« اعدلوا هو أقرب للتقوى » ، « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ،  
ولا تبسطها كل البسط ، فتقعد ملوماً محسوراً » .

\*\*\*

وفي السفينة السريعة التي ركبناها من دمياط إلى رأس البر ، جلس  
قبالي شاب مصرى كأنه جامعى ، موفور الشباب غض الإهاب ، تلوح  
عليه أمارات الغنى الفاحش ، والترف المفرط ، والنعمة السابغة ، والحياة  
الرافهة ، وجلست بجواره فتاة يهودية جميلة فاتنة ، وأخذ الشاب يحادثها  
أو يسامرها مسامرة عرفنا منها أنهما حبيبان أو صديقان ، أو صائد  
وقنيصة ، أو سيد ومسود ، فالفتاة قد فتنت الشاب بجملها وسحرها ،  
فملكت عليه أمره وقادت زمامه ، فأشارتها منارته ، وصوتها أغنيته ،  
ورضاها أمنيته ، وإنها لتثقل عليه فى الخطاب أحياناً فيرضى بهذا الدلال  
بل يسر به ، وإنها لتظهر الضيق أو تتظاهر به فيحاول الشاب أن يروِّح  
عنها بمختلف الوسائل والأسباب مهما كلفه ذلك من الجهد والمال ،  
فهو مسحور بها مأخوذ ، خاضع خاشع ، يتفق لتمتع ، ويوزع لتجمع ،  
ويتعب لتستريح . .

ومن هنا أتينا أيها المصريون ، بل أيها الشرقيون أجمعون ! . .

لم نؤت عن طريق جيش ضربنا بالحديد والنار ، ولم نؤت عن طريق مكيدة حربية أو خدعة سياسية فحسب ، بل أتينا من تجميع الأخلاق وضعف القلوب وفتور العزائم وطغيان النفوس وبعي الشهوات ؛ واستطاع أولئك الفتيات الماكرات أن يخدعن شبابنا عن وطنهم ودينهم وأخلاقهم ... فاحذروا أيها الشباب ! . .

أنا موقن أن هذه الفتاة اللاعبة الماكرة ، بل تلك الحية الخبيثة الرقطاء تستطيع أن تؤثر في هذا الشاب العاشق المستهام فتسيء التأثير . تستطيع أن تزين له الاستهانة بوطنه فيستهين ، وتستطيع أن تحرضه على الشقاق مع أسرته والتمرد على أبيه وأمه فيستجيب ، وتستطيع أن تهوّن في نظره بذل المال ذات اليمين وذات الشمال على ثيابها وعطورها وزينتها ومطالبها اللاهية الصاخبة ، فيكون من المسارعين الملبين ، وتستطيع أن تتلف أخلاقه وتفسد طباعه وتهدم شرفه وكرامته ودينه وحرّوّه ، ومع هذا يظن أنه من الراجحين ! . .

فياضيعة الشاب الذي يُسلم عنانه وقياده إلى فتاة سلاحها جمالها وفتنتها . إنه لن يعرف سواء السبيل بعد أن أسلم زمامه للشيطان .

فياشبيبة مصر في كل ناحية من نواحي الوادي الكريم ، بل

يا شبيبة العروبة في كل قطر شقيق ، احذروا المرأة العابثة فإنها الأفعوان  
الذى يعميكم عن كل خير ، ويجمع فوق كواهلكم كل شر ، واحذروها  
خاصة إذا كانت غريبة عنكم دخيلة عليكم ، فإنكم إن عرفتموها  
أو ألفتموها كُتب عليكم المصير المحتوم ، وأنتم تعلمون ! .  
واذكروا حين تعشقون أن لكم بلاداً لها حق في قلوبكم ، وأهلاً  
لهم نصيب من جهودكم ، وعشيرة أتم حماة ذمارها وأسد غابها . ومن  
للغاب إذا ذلت الأسود ، أو من للحمى إذا استأنثت الرجال . واستنوقت  
الجِمال ، وهانت الأبطال ، فاستعبدتهم ربات الحجال ؟ .

\*\*\*

وأخيراً هذه رأس البر بعد طول الشوق وحرقة الحنين ولذعة  
التلهف ، وشدة الصبر ومرارة الانتظار :

خليلىّ لو أحببتما لعامتما      مكان الهوى من مغرم القلب صبه  
تذكر والذكري تشوق ، وذو الهوى      يتوق ، ومن يعلق به الحب يُصبه  
غرام على يأس الهوى ورجائه      وشوق على بعد المراد وقربه !

هذا هو المصيف المصرى الهادى الجميل ، هذا ملتقى النيل الكريم  
بالبحر الوسيع ، هذا مجال الشباب والفراغ والجدة ، وتستطيع مع هذا  
أن لا تجعله مفسدة ، هذا مسترد الراحة والهدوء ، هذه مصحة الأبدان  
والقلوب والعقول ؛ هذه بقعة جملها الله بأفضل ما جمل به كونه العريض .

هذه رأس البر ، فانس كل شيء ، وودّع كل هم ، واترك كل  
شاغل من شواغل دنياك ، وادخل رحابها خاليا عاريا مما أثقلت به  
كاهلك من عناء ومشقات ، واترك قبل أن تطأ الحصى كل ما يربطك  
بالمعترك الذى كنت فيه والذى خلقتك وراءك . . . اترك الكتاب  
والصحيفة والمجلة ، والمهنة والوظيفة ، والماضى والحاضر والمستقبل ، والهموم  
والهدوم ، والمال والأعمال ، والآلام والآمال . وافرغ لمتع الهوى  
والشباب ، فى طهارة وصفاء إهاب ، واسبح فى ملكوت ربك  
الرحيب ، وتنقل فى فردوسه العجيب ، وإلا فىا ضيعة ما أنفقت  
من جهدك ووقتك ومالك فى طريق الوصول إلى هذا الفردوس المأمول ! .  
لقد سعيتُ إلى رأس البر اليوم كما سعيت إليها منذ عشر سنوات ،  
فالظروف هى الظروف ، والأسباب هى الأسباب ، والأحوال هى  
الأحوال ، كأن لم يتغير شيء أو لم يمر زمن . . . فقد سعيت إليها  
من قبل وأنا مريض مكدر مجهود ، واليوم أسعى إليها وأنا مرهق  
الأعصاب واهى العزم ضعيف المنة ؛ ولقد سعيت إليها وأنا على خلاف  
مع مَنْ أحب وأجل ، واليوم أسعى وقد زادت شقة الخلاف ، وثقلت  
وطأة الشقاق ، ورحم الله عمر يوم قال : إن الناس أشبه بزمانهم منهم  
بآبائهم ! . فكيف إذن يلتقى متنافسان أو يتفق جيلان ؟ . ولقد سعيت  
إليها أمس واليوم فى أعقاب الصيف حيث يرق الهواء ويعتدل الجو ،

ويهدأ المصيف من غوغاء المتظاهرين بالغنى والجاه ، فيحلو لأمثالي  
من المحدودين المجهودين أن يجدوا الطب لقلوبهم ، والسكينة لأرواحهم ،  
والفتوة لأجسادهم !!.

وهاهي ذى الطبيعة أمامي كما خلقها الله وراها منذ القدم ، لم تتغير  
ولم تتبدل ، فهذا هو الهواء وما بي من قدرة على وصف تأثيره أو تخديره ،  
وهذا هو الماء ولو استطعت لقضيت عمري بين أمواجه ، وهذه هي  
الشمس التي تنفع وتفيد في حالتى رقتها وقسوتها ، أولينها وشدتها ،  
وكانها تخلق الحياة خلقا ، وتبعث القوة فى الهامد بعنا :

هى أم الأرض فى نسبتها      هى أم الكون والكون جنين  
هى أم النار والنور معا      هى أم الريح والماء المعين<sup>(١)</sup>  
هى طلع الروض نوراً وجنى      هى نشر الورد ، طيب الياسمين<sup>(٢)</sup>  
إنما الشمس وما فى آيها      من معان لمعت للعارفين  
حكمة بالغة قد مثلت      قدرة الله لقوم عاقلين !

وهذا هو الشاطيء المنبسط المتراعى الذى لم تفسده الصناعة والتعقيد ،  
وإن شاطيء رأس البرليزهو بهذه الميزة على غيره من الشواطىء ..  
وهذا هو البحر الذى طوى القرون وصاحبته السنون ؛ البحر  
الأبيض المتوسط ، أو بحر العرب كما كان يسمى قديما بحق ، يوم كان

(١) التابع من العيون (٢) نشر الورد : رأخته .



للعرب عز وسلطان ، ومجد قام بنور الإيمان لا بقوة السنن ، وهذا هو  
ماؤه الأزرق<sup>(١)</sup> ذو الموج الصاخب العالى الذى لا ينقطع ، وذو المدى  
البعيد الذى لا يدرك ؛ ولقد ترمى ببصرك فى داخل البحر لتتعرف  
نهائته ، فيخيل إليك بمخادعة بصرك لك أنها منك على بضعة مئات  
من الأمتار ، ولكن الواقع أن الغاية هنالك هنالك ، بعيدة جدا ،  
حيث تقضى الأيام والليالى فى قطع الطريق إليها ! ..

وهذا هو النسيم الذى ليس عليلًا كما يصفه الأدباء ، ولكنه  
قوى منعش ، ولو اعتل لأمل ، وحسبك من الهواء صفاؤه ونقاؤه ،  
وهبوبة فى جو معتدل لا يبلغ أن يكون إعصاراً ، فذلك دواء لمن رزق  
الفحولة فى جسمه وصحته ، ولم يكن هزيلاً يخاف هبوب النسيم فى قوة  
مع اعتدال ! .. .

هذا هو النسيم الذى قال فيه الرجل العظيم ، رحالة البادية وكشاف  
الصحراء والرياضى الفارس ، أحمد محمد حسنين باشا :

(١) اكتشف عالمان أمريكيان السر فى زرقه مياه البحر ، إذ وجدوا فى كل بوصة  
مربعة من ماء البحر نحو مليون ونصف مليون ذرة مثل ذرات التراب ، يبلغ قطر  
كل منها جزءاً من خمسين ألف جزء من البوصة ، وهذا الذرات تعكس الضوء إلى  
سطح البحر ، وفى أثناء ارتداد الضوء إلى السطح يكون قد رشح فيمتص الماء  
اللونين الأحمر والأصفر منه ، ويترك الأخضر والأزرق والبنفسجى ، فيتكون منها  
مجتمعة لون « النيله » الذى تظهر به مياه البحر . وقال آخرون : لأن لون ماء البحر  
يبدو أزرق لأن لون السماء ينعكس فوقه ولون السماء أزرق كما هو مشاهد .

«إننى أدين بحياتى وصحتى وشبابى ونشاطى للهواء الطلق النقي الصافى» ! .  
هذا هو النسيم الذى يصفح الصعلوك فيسعدده ويفرحه ويسره ،  
حتى يجعله ملكا وإن كان فى زى مسكين ، وسلطانا وإن لم يكن فى  
عرف الناس من السلاطين . ولقد قيل لأعرابى :  
كيف تصنع فى البادية إذا انتصف النهار ، وانتعل كلُّ شىء ظلّه  
( والتهبّت الرمال ، وتسعرت الشمس ) ؟ ! . فقال : وهل العيش إلا  
ذاك ؟ يمشى أحدنا ميلا ، فيرفضُ عرقا كأنه الجمان ، ثم ينصب  
عصاه ، ويلقى عليها كساه ، وتقبل الرياح من كل جانب ، فكأنه فى  
أيوان كسرى !! ..

نعم صدقت أيها الأعرابى ، فلقد تنعم بهذا الهواء حينئذ أكثر  
مما ينعم به صاحب الإيوان ، أو سيد العرش والسلطان ، ولقد تكون  
حينئذ أهدأ منه بالا ، وأقل هموماً وأشغالا ، وأهنا نفساً من ذلك الذى  
أثقلته الشئون والشجون ، ووقدته التبعات والتكاليف ! ..

\*\*\*

هأنذا أيها البحر بسطانك ووصولجانك ، بسعتك وفسحتك ،  
بشعرك وسحرك ، بهديرك وزئيرك ، بجمالك وجلالك ، وكم فيك من  
آيات للمستبصرين ، ولكن أكثر الناس لا يعقلون ! ..  
كم فيك أيها البحر من أسرار ، وكم شاهدت من أحداث وأخطار ،

وكم طويت من أعمار ، وكم رقد فيك من بررة وأشرار ، وكم تكمن  
في مياهاك اللينة من نار !! ..

حينما يعنف الصيف أيها البحر تأتي أنت فتلطف من عنفه وشدته ،  
وترفع الإنسان عن مستوى الطين والتراب إلى مستوى السماء  
والسحاب ، فكأن الإنسان لديك ليس إنساناً في دنياه الأرضية ،  
ولكنه ملك يشف ويرف حتى يصبح روحاً لا يرى ، بل يغرق وسط  
هالة من النور ، وكأنه ليس عبد المادة ، ولكنه معنى لطيف قد امتزج  
بالطبيعة الجليلة الخالدة ، فاتحد بها وصار جزءاً منها . . .

وشمسك أيها البحر صافية قوية ، تمثل أمامك جبهة المحافظة  
والاستمسك ، فكأنما تخشى شمسك أن يفقد الناس عندك رجولتهم  
من ملاطفتك ومنادمتك ، فتذكرهم بهذه الأشعة القوية أن لهم رجولة  
فيها القوة والفتاء !! .

دعوني هنا أستريح : أشم الهواء وأرى الماء وأتمتع بالضياء . . .  
دعوا أذني تستمع إلى هدير الموج القاصف ، ودعوا قامتي تستقبل  
الريح العاصف ، ودعوا عيني تنبهر بذلك الضوء الخاطف ، ودعوا  
حواسي تستيقظ ذلك الاستيقاظ الجارف ، ودعوني للطبيعة المتبرجة  
المتبلجة المجلوة ، فما أحس بكياني وجناني وبياني إلا في رحاب هذه  
القوة المجلجلة المنزللة التي تنقل المرء من حال من أحوال !! . . .

دعوني هنا أستلقي على مقعد وثير مستطيل ، وأرمي بناظري إلى  
الأمم ، وأرخي أعضائي كل عضو في ناحية ؛ وأتجرد من ثيابي  
الثقيلة ، وأتخفف من أحمالي وأوزاري ، وأظل هكذا حتى يقضى  
الله أمراً كان مفعولاً ! ..

فليسِرَ الزمن أو فليقف ، فقد ألغيتَه الآن من حسابي ، ولتتحرك  
الدنيا أو فلتسكن ، وليقم العالم أو فليقعد ، ولتدر الكرة الأرضية أو  
فلتكف عن الدوران ، فأنا هنا ودنياي هنا ، ولست أريد الانتقال  
حتى يرث الله الأرض ومن عليها :

وصدقت في حبي فلست مبالياً أن أُنح الدنياه أو أُنمعا !!

لقد سئل أحد الرجال المفكرين العائدين من الحرب بعد سنوات  
جهاد ثقال : ما الذي ستفعله وقد عدت من الميدان المشتعل إلى بيتك  
الهاديء ؟ فقال : الأمر في غاية السهولة واليسر ، سأجُرُّ مقعداً من  
مقاعد الجلوس المريحة إلى شرفة منزلي المطلّة على النهر الجاري ،  
وسأجلس فوق المقعد ثلاثة أسابيع ساكناً جامداً ، لا أتحرك ولا أتململ ،  
بل أتطلع إلى الأمم في هدوء وراحة بال ، وأفتح رثتي للهواء ، وأتمتع  
برؤية الماء ، بلا عمل أو عناء ، وبعد الأسابيع الثلاثة سأبدأ أفكر  
في هز المقعد الذي أجلس عليه ، رويداً رويداً ، وقليلًا قليلًا ، إلى  
ما شاء الله ! .

وكذلك أريد أن أكون هنا؛ أريد أن أهدأ وأستريح بلا تحديد  
وقت أو ارتباط بميعاد . . ! ! .

لقد تذكرت في هذا الموقف كلمة المنفلوطي الأديب التي يجب  
فيها الطبيعة إلى الشاعر ، ويدعوه إلى التمتع بما فيها من جمال  
وجلال فيقول :

« أنت شاعر يا مولاي ، وقلب الشاعر مرآة تتراءى فيها صور  
الكائنات ، صغيرها وكبيرها ، دقيقها وجليلها ، فإن أعوزتك السعادة  
ففتش عنها في أعماق قلبك ، فقلبك الصورة الصغرى للعالم الأكبر  
وما فيه ! .

السماء جميلة ، والشاعر هو الذي يستطيع أن يدرك سر جمالها ،  
ويحترق بنظراته أديمها الأزرق الصافي ، فيرى في ذلك العالم العلوي  
النأى ما لا تراه عين ، ولا يمتد إليه نظر .

والبحر عظيم ، والشاعر هو الذي يشعر بعظمته وجلاله ، ويرى  
في صفحته الرجراجة المترجحة صور الأمم التي طواها ، والمدن التي  
محاها ، والدول التي أبادها ، وهو باق على صورته ، لا يتغير ولا يتبدل ،  
ولا يبلى على العصور والأيام .

أنت كالطائر السجين في قفصه ، فمزق عن نفسك هذا السجن  
الذي يحيط بك ، وطر بجناحيك في أجواء هذا العالم المنبسط الفسيح ،

وتنقل ماشئت في جنباته وأكنافه ، واهتف بأغاريدك الجميلة فوق  
قمم جباله ، ورءوس أشجاره ، وضفاف أنهاره ، فأنت لم تخلق للسجن  
والقيد ، بل للهتاف والتغريد « !! ..

فدعوني يا بني آدم دعوني ، فما بي حاجة إلى دنياكم الحقيمة  
الهيينة ، وما بي رغبة في عيشكم الدون ، وإن يوما هنا أيها الناس كآلف  
يوم مما تعدون في دنياكم التافهة ، وإن الحياة هنا لتوزن من نفاستها  
وأصالتها ، وسموها وعلوها ، وندرته وعزتها بأدق الموازين ، وأما  
حياتكم فتكالم بأوسع المسكاييل ، لأنها من التراب تقوم ، وإلى  
التراب تسعى ، وفي التراب ترقد وتفنئ ! ..

دعوني ، فقد استولى المكان مني على الفكر والجنان ، وسيطر  
الشاطيء بجماله وجلاله على مالي من جسم وكيان ، وحس ونفس ،  
وشعور وخواطر :

قالت — وأبثتها وجدى فبحت به — :

قد كنت عندى تحب الستر فاستتر !

أست تبصر من حولي ؟ فقلت لها :

غطى هواك وما ألقى على بصرى !

لقد كنت أعيش في دنياكم — أيها القطعان السائمة الشاردة —

جسدا بلا روح ، وجمانا بلا قلب ، ومبنى بلا معنى ؛ ولقد آخذ معكم  
فيما تأخذون فيه من أسباب وشئون ، فأتحرك كما تتحركون ، وأعمل  
كما تعملون ، ولكنني هناك ، هناك بعيداً عنكم حيث لا تعرفون ! ..  
فستان ما بين ظاهر وخفي ، وما بين منشور ومطوى ، وويل للشجي  
من الخلى ! ..

حدث ابن بكار قال : رأيت رجلاً بناحية الثغر ، عليه ذلة  
وخضوع ، واستكانة وخشوع ، كان يكثر التنفس ، ويخفي السكوت ،  
ويبدي الأنين ، وحركات الحب لا تخفي في شمائله ، ولا يسترها بتصاونه ،  
فسألته في بعض أيامه وقد خلوت به عن حاله ، فكان جوابه وقد  
تحدرت الدموع من عينيه :

أنا في أمرى رشاد بين غزو وجهاد !!

بدني يغزو عدوى والهوى يغزو فؤادي !

دعوني أنطلق وحرיתי ، أهتف وأغرد ، وألعب وأطرب ، وأهيم  
على وجهي كما أشاء ، فقد وقذتني دنياكم ، وأرهقتني قيودكم ، وأثقلتني  
أغلالكم ، وهذتني أحمالكم ، فدعوني هذه البرهة أنصف حرיתי ،  
وأغترف لذتي ، وأخذ متعتي ، وسأعود بعد قليل أو طويل إلى دنياكم ،  
ولكم مني عندها ما تشاءون :

وأيام الصفاء وإن توانت    يطارد ركبها نأى سريع  
إذا ذهب الربيع ولم أمتع    بنضرته فلا عاد الربيع!

\*\*\*

ليتك كنت معنا هنا يا « سعيد » ! أيها الشقيق المجاهد في  
سبيل العلم والأدب ، فلقد حرمت نفسك من الراحة في عطلة العيد ،  
وبقيت في القاهرة تصطلي بناها وحرورها ، وتوالى طبع كتابك  
الجديد : « تطور الكتابة العربية » الذي سيكون صوتاً لك يرفع  
ذكرك بين المفكرين العاملين ! ... ليتك كنت هنا يا « سعيد »  
لتنعم كما ننع ، وتتمتع كما نتمتع ، فأنت أحوج منا إلى هذه اللذة  
وتلك المتعة بعد ذلك المجهود الشاق الذي أفنيت فيه عاماً أو  
يزيد !! ..



(٤)

## أشواك حول الورد

على أنه متى كان الخير خالصاً لأهله كله ؟ ومتى كان في الدنيا حلوى بدون نار ، أو ورد بلا أشواك ، أو جنة بلا مخاطر وأهوال ؟ . من أشواك رأس البر أنك ترى الغلاء فيها فاحشاً ومستحكما ، وبخاصة إذا أردت أن تنزل نزلاً راقياً يهيب لك أسباب النظافة والراحة ، وتطعم طعاماً يفي بحاجات بدنك ، وتجلس جلسة ساكنة لا ضجيج فيها ولا جلبة ! . . .

وليت الفائدة في هذا الغلاء المستحكم كانت عائدة على المصريين أو راجعة إلى الوطنيين . ولكن الواقع على العكس من ذلك مع شديد الأسى والأسف ؛ فالفنادق والمطاعم والمشارب في رأس البر كما هي في الإسكندرية ، كما هي في كل مدينة مصرية ، في أيدي الأجانب من اليهود واليونانيين والأروام وغيرهم ؛ وإن نظرتك ليصطدم أول ما تنزل رأس البر بأسماء : « سيسل ، وأصلان ، وسافواي ، وبريفاس » وغيرها مما يدل على أن هذه المتاجر والفنادق والملاهي الأجنبية تستنزف دماء المصريين ، وتتركهم أشباحاً يقتلها الفقر والجوع والذلة والمسكنة

والحاجة ؛ فماذا لكم في بلادكم أيها المصريون ؟ . إنكم لغرباء وأصحاب  
الديار هم الدخلاء ، فابكوا كثيراً وضحكوا قليلاً ، واعلموا أنكم  
في وطنكم أضيع من الأيتام في مأدبة اللثام ، وسبحان من لو شاء لبغشكم  
من موتكم فجعلكم رجالاً تغارون على الحقوق والحرمات ! .

وليس معنى هذا أن الغلاء في رأس البر فريضة محتومة ، بل أنت  
تستطيع في المناطق الشعبية هناك أن تعيش كما يعيش الفرد المتوسط  
في الأحياء الوطنية بأية مدينة من المدن المصرية ؛ ولكنك في هذه  
الأحياء الشعبية ستضطر إلى أن تحمل الكثير ، وأن تتساهل  
في الكثير ، فأنت ستعيش في منطقة مزدحمة بالساكين والنزلاء ،  
وأنت ستجد الأكوخ ( العشش ) متلاصقة مشتعرة ، لا يفصل بين  
حجراتها إلا فاصل رقيق لا يجب ضوءاً ولا يستر صوتاً ، وقد تنام  
مثلاً وحيداً في حجرة ، وبجوارك رجل مع زوجته لا يفصل بينك  
وبينهما إلا حاجز رقيق من البردى ، وقد تسمع وأنت نائم ما يدور  
بين الزوج وزوجته ، ولو كنت ممن يلقون السمع طوعاً أو كرهاً لعرفت  
الكثير من الخبايا والخفايا ، فكم بداخل هذه الحجرات من أخبار  
وأسرار !! .

على أن أصحاب هذه الأسرار لا يبقون عليها كثيراً ، ولا يخشون  
تسربها إلى سواهم ، بل قد يحلو لبعضهم أو بعضهن أن يعالن بها لنقص

في نفسه أو هوى عنده ؛ والمصيف يده صناع في تجريد الكثيرين  
من الحياء والخجل ، فالشيخ هنا ينسى وقاره ، والمتزمت يترك تزمته ،  
وكل امرئ يجرؤ هنا على أشياء لم يكن يجرؤ عليها من قبل ،  
فإذا كان الواحد من هؤلاء مطبوعاً على قلة المبالاة ، مفطوراً على  
التبجح والتوقح ، انقلب هنا شيطاناً من شياطين الإنس ، قد يفوق  
شياطين الجن في بعض الأحيان ! .

ومن أشواكها أيضاً ما تجده من مستلزمات المصايف المصرية  
المتحررة المتحللة ، من عرى وفجور ، وتمرد على الأخلاق والفضيلة ،  
فتستطيع إذا استقصيت وتطلبت الشر أن تجده ، وقلمما يخلو مجتمع حديث  
كهذا من انحلال الأخلاق وتميع الطباع ... وهنا في رأس البر المصيف  
الوطني الهادي النائي تجد أيضاً ما يسوؤك ويؤلمك ويفزعك إن كنت  
من يحافظون على أخلاقهم ومروءاتهم ؛ تجد هنا حشداً من العاريات  
والعرايا يمثلون سوق الرقيق أو انطلاق الإنسان على سنة الحيوان ،  
فهنا أجساد معروضة للبيع ، وهناك أئداء وأعراض يتاجر بها أهلها ،  
وهناك في جوانب من المصيف - دون جوانب طبعاً - تنطلق  
الغرائز والشهوات والحواس معرّبة ، هناك الحب السريع والغرام  
المكشوف والصلات الحرة ، والصدقة التي تعقد في دقائق ، وتموت  
في أيام أو ساعات ، بعد أن تحقق غرضها المنشود المنكود ! .

هناك رقاعة وخلاعة ، هناك مباءة كلها دناءة ، هناك جواذب تجذب  
الساذج إلى هاوية الفساد ، هناك نوازع شر تحرض الضعيف على الضلال ،  
هناك نيران تضيء من بعيد ثم تحرق من قريب ، ولا ينجو من تخديرها  
وتأثيرها إلا من رعي الله ، ولا يسلم من شرها وضيرها إلا من كان  
حديد القلب صليب العزيمة ثابت الأخلاق ، وما الرجولة إلا ثبات  
الأخلاق<sup>(١)</sup> ! ..

وعلى الرغم من هذا كله تستطيع بجانب من العناية والحرص ،  
والمحافظة والحذر ، أن تكون أنت ومن معك من أهلك أو رقتك  
بمنأى من هذه المساخر والمنكرات . . . . وتستطيع إذا طلبت أن تجد  
في رأس البر الشاطيء الوسيح الفسيح الممتد أمكنة هادئة نائية ، لا تقتحمها  
الأبصار الآتمة ولا الشهوات العارمة ، وتستطيع أن تجد الناحية التي  
تستحم فيها مع مَنْ معك دون أن تكونوا نهياً مقسماً للنظرات الشرهة  
والعيون الجائعة . فاختر لنفسك ما يحلو ! . . . .

\*\*\*

والأخوة والمساواة والديمقراطية تتجلى على الشاطيء وفي الماء  
وفي سائر أنحاء المصيف بأجلى معانيها ، فهناك الفتيان والشيوخ والصغار

(١) يرحم الله الرافعي إذ يقول : « لا يهزم الشاطيء إلا ذلك (الجامع الأزهر)  
لو لم يكن قد مسخ ، فصرخة واحدة من قلب الأزهر القديم تجعل هدير البحر كأنه  
تسبيح ، وترد الأمواج نقية بيضاء ، كأنها عمامة العلماء ، وتأتي إلى البحر بأعمدة  
الأزهر للفصل بين الرجال والنساء » ! .

والكبار والأغنياء والفقراء ، والعاملون والعاطلون ، والخدمون والخدمون ، الكل تسودهم مظاهر السهولة واليسر ، والتجرد من أثقال التباهي والتفاخر بالأحساب أو الأنساب أو الأعراض أو الرتب ، فلا سيد ومسود ، ولا مطعوم ومحروم ، ولا حاكم ومحكوم ، بل الجميع تتساوى حظوظهم من المتعة بما خلق الله من هواء وضياء ورياضة وهدوء ، والجميع يمشون بلا خدم أو حشم ، والجميع يتساوون في قلة الاحتفال بما تعارفوا عليه في المدن أو داخل البيوت والقصور ونواحي الحياة الاجتماعية المعقدة من العناية بالمميزات والفوارق ، والجميع يتلاقون ويختلطون ويتعارفون ويتسامرون ويتسابقون بلا غضاضة أو إنكار . وقد يجمع الشاطيء أو الماء بين خادم حقير وموظف خطير دون أن تستطيع وقت رؤيتهما أن تميز بينهما ، حتى لقد تجاوزت هذه المساواة والديمقراطية والرفقة حدودها ، فهؤلاء نسوة يختلطن برجال ، وهؤلاء شواب يمتزجن بشبان ، وهذا هو القطيع الذي انطلق على وجهه فاختلط ظباؤه بكواسره ، واشتبكت كواعبه بغضافره ، وشوه جمال هذه الجنة الفيحاء بتلك المآثم النكراء !..

\*\*\*

ولم لا يتساوى الناس هنا ، وتعلوهم سمات عامة جامعة ، وتسودهم صبغة شاملة كاملة ، والإنسان مفطور بطبيعته وجبلته على محاولة التجرد مما حملته الحياة المدنية والمعيشة الاجتماعية من أثقال وأوزار تتمثل

في المظاهر والأعراض والجاه والمال والألقاب والرتب ، فتراه إذا خلا إلى نفسه ، أو أمن الرقيب وجموع الجماهير ضاق ذرعا بهذه التفاهات ، وألقاها بعيداً عنه ، وعاش كما كان آباؤه وأجداده ، سهل الحياة قليل التكاليف ، ليريح أعصابه ويستجمل نشاطه ، ويستعيد هدوءه ، وينقطع ولو إلى حين عن صخب المجتمع ولجج الحياة .

ولم لا يتساوى الناس هنا ، وليس ثمَّ شيء يدعى فيه أحد ملكية أو إحراراً ، فليس هنا ضيعة أو مزرعة أو متجر أو مصنع ، وليس هنا حمى يحمى ، أو حد محدود أو حاجز محجوز ، وإنما يوجد متاع إلهي خالد ، منحه الله للخاص والعام ، ولم يجعل لغيره إلى امتلاكه من سبيل ، فمن الذي يمنع أحداً من التمتع بالضيء المنبعث من شمس النهار ؟ . ومن الذي يستطيع أن يمنع أحداً من نور القمر البازغ في أطواء الليل ؟ ومن الذي يستطيع أن يحيط بحباله أو أوصله هذا البحر المبسوط ليتبجح قائلاً: هذا لي وليس لغيري؟ . ومن الذي يستطيع أن يمنع هذا الهواء النقي المتواصل المهبوب عن صدور الناس وورثاتهم ؟ .

لئن استطاع الإنسان الخداع الختار ، الذي خلق من حرص وطمع ، أن يقيم في مدنه ومجتمعاته المعقدة حواجز الحيازة والملكية ، فيدعى لنفسه أرضاً أو قصراً أو بيتاً أو ضيعة أو حمى ، إنه لأعجز عن أن يدعى مثل هذا أو بعضه فيما خلق الله من نعم عامة وآلاء عالمية ، وإن مجالى الطبيعة ومسارحها ستظل إلى الأبد متاعاً مشاعاً لكل منتهت

وحمى مباحا لكل راغب ! . . ومن الذى يستطيع أن يتحكم فى الماء  
والهواء ، والنور والضياء ، وعبق الأزهار ونشر الرياحين ، وجلال الليل  
وسحر القمر ، وجمال النهار وروعة الضحى ، وفتنة الرياض والغياض ؟ !

اسمعوا إن شئتم صوت الشاعر :

لقد تذكرت تلك القصيدة الطويلة الرائعة التى نسج برديتها الشاعر  
إيليا أبو ماضى وجعلها محاورة بين ( الشاعر والسلطان الجائر ) إذ يقول  
فيا قال :

أمر السلطان بالشاعر يوما فأناه

قال : صف جاهى ، ففى وصفك لى للشعر جاه

وإذا بالشاعر الحر المنطلق يسخر من تجبر ذلك السلطان الجهول ،  
وينبئه أن الشاعر مع فقره يتمتع بما لا يتمتع به سلطان ، من رَوْح  
وريحان ، ونسيم وضياء ، ويذكره بأن الكون قد برأه ربّه لعباده  
أجمعين ، وأنه إن ملك شيئاً فقد عجز عن امتلاك أشياء ، وأن أسمى  
ما فى الكون من آيات ، وأبداع ما فيه من مفاتن ، إنما هو ملك مشاع  
لكل إنسان :

قال : إنى لا أرى الأمر كما أنت تراه

إن ملكى قد طوى ملكك عنى ومحاه

والروض؟ إن الروضة صنعة شاعر  
وشى حواشيه وزين أرضه  
لفراشة تحيا له ، ولنحلة  
ولبلبل غرد يساجل بلبلا  
ولديمة تزرى عليه دموعها  
سمح طروب رائق جزل  
بروائع الألوان والظل  
تحيا به ، ولشاعر مثلي !  
غرداً ، وللنسمات والظل  
كيا تقيه عوامل المحل

\*\*\*

والبحر قد ظفرت يداك بدره  
أمرجت أنت مياهه؟ أصبغت أنت  
هو للدجى يلقي عليه خشوعه  
هو للرياح تهزه وتشيره  
للطير هائمة به مفتونة  
للشاعر المفتون يخلق لاهيا  
ولمن يشاهد فيه رمز كيانه  
يا من يصيد الدر من أعماقه  
لا تدعيه فليس يملك ، إنه  
وحصاه، لكن هل ملكت هديره؟  
رماله؟ أجبلت أنت صخوره؟  
والصبح يسكب وهو يضحك نوره  
والشهب تسمع في الظلام زئيره  
لا للذين يروعون طيوره  
من موجة حورا، ويعشق حوره  
ولمن يجيد لعينه تصويره  
أخذت يداك من الجليل حقيره  
كالروض، جهدك أن تشم عبيره

\*\*\*

ومررتُ بالجبل الأشم فما زوى  
ومررتَ أنت فما رأيت صخوره  
عنى محاسنه ولست أميرا  
ضحكت، ولا رقصت لديك حبورا



ولقد نقلت لئمة ما تدعى فتعجبت مما حكيت كثيرا  
قالت: صديقك ما يكون؟ أقشعما؟ أم أرقما؟ أم ضيفما هيصورا؟  
أيحوك مثل العنكبوت بيوته حوكا؟ وبينى كالنسور وكورا؟  
هل يملأ الأغوار تبراً كالضحى ويرد كالغيث الموات نضيرا؟  
أيلف كالليل الأباطح والربي والمنزل المعمور ، والمهجورا؟  
فأجبتها : كلا ، فقالت : سمه في غير خوف : ( كأننا مغرورا ) !  
والقصيدة كلها من هذا الطراز الإنساني العالى ، وإن شئت أن  
تمتع بها قلبك وعقلك فطالعها في ديوان ( الجداول ) لأبى ماضى ! .  
فيا بنى آدم ! كفكفوا من غلوائكم ، واقتصدوا فى غروركم ،  
ولا تقولوا : ملكنا ! . فما ملككم إلا الحقير ؛ ولله ملك السموات  
والأرض ؛ ولله الأمر من قبل ومن بعد ؛ وإليه يرجع الأمر كله ؛  
وهو على كل شىء قدير !! .

\*\*\*

والقيود هنا ممنوعة مرفوعة ، فأنت كما تهوى وتشاء ، وأنت منطلق  
انطلاق هذا الهواء ، وأنت مندفع إلى رغباتك اندفاع هذا الماء ،  
وأنت حرقى نفسك بأوسع حدود الحرية وفى أفسح مجالها : أنت  
حرقى طعامك وشرابك وزينتك وثيابك ونزهتك ؛ أنت حرقى  
نومك ، تنام على سرير أو أريكة أو مقعد أو فوق الرمال ؛ وأنت حرقى

في رياضتك ، تسير على قدميك حافياً أو بحذاء أو على عربة ؛ وأنت  
حر في استحمامك ، تستحم صباحاً أو ظهراً أو أصيلاً ، منفرداً أو مجتمعاً  
دائماً أو بعيداً ، قليلاً أو طويلاً ، هادئاً أو صاخباً ؛ وأنت حر في ثيابك  
تسير بالحلة الرسمية أو المنامة (البيجامة) أو القميص والسروال ، أو السروال  
فقط ، أو الثبان (لباس البحر) أو الجلباب البلدي ، أو غير ذلك مما  
تشاء ؛ وأنت حر في طعامك ، تأكل طيباً أو رديئاً ، كثيراً أو قليلاً ،  
على انفراد أو أمام الناس ؛ وهكذا في كل شأن من الشؤون ، أو أمر من  
الأمر ! ..

ومن لطائف الشاطيء أن شهيتك تنفتح عنده حتى تصبح نهما ،  
فأنت هناتاً كل في اليوم عدة مرات ، وتأكل وافر الكميات ، دون  
أن تتعب أو تمرض ، وهأنذا آتى إلى الشاطيء في أعقاب صوم امتد  
شهرًا ، وبعد أن تعودت معدتي على الجوع والامتناع الطويل عن الطعام  
ومع هذا آكل وآكل ، ثم أنزل البحر وأعود للأكل ، وأستنشق  
الهواء وأعود للأكل ، وكان الرياضة والهواء النقي المنعش والحركة  
المستمرة وراحة البال وسعادة النفس تجعل المعدة صالحة لاستقبال المزيد  
من الطعام دون مرض أو ألم ! ..

(٥)

## لماذا خلق الله البحر؟

ونزلت إلى البحر الطويل العريض ، المنبسط الممتد ، الذي لا تدرك العين مداه ، ولا تحيط بغايته ومنتهاه ، وأخذت مع رفقتي أتقدم إلى داخله قليلا قليلا ، وكلما خطونا خطوة أو قطعنا مرحلة خُيل إلينا أننا فتحنا حصناً أو قهرنا مدينة أو حطمنا جيشاً ، ونحن فرحون مسرورون محمورون بنشوة السباحة والاستحمام ، وبدأ الموج يعلو ويقسو . ويشتد ويعتد ، وإذا نحن لا نخلص من موجة قهارة إلا لنستقبل موجة جبارة ، وأخذت كغيري أغالب الموج ويغالبنى فيغلبنى ؛ وأحياناً أحاول أن أضحك على نفسي وأرضى غروري ، فأرتد إلى الوراء قليلا حيث يهدأ الموج ، فأقاوم الموج الضعيفة الخفيفة فأقدر عليها وأهزأ بها ، ويخيل إليّ أنى اصطدت الذئب من ذيله ، وغلبت البحر على أمره ، ونجوت من الموج وخطره ، ثم تفجأني عقب ذلك موجة قاسية فتردعني وتطويني ، وتلظمني فتؤذيني وتؤذيني ، وتوقظني من غفلة أحلامي وظنونني <sup>(١)</sup> .

(١) من حديث الرافعي عن البحر : « والأطفال يلعبون ويصرخون ويضجون ، كأنما اتسعت لهم الحياة والدنيا ، وخيل إلى أنهم أفلقوا البحر كما يقلقون الدار ، =

وهكذا شأن الطبيعة دائماً ، تلين أحياناً حتى ليستخف بها الإنسان  
ثم تعنف حتى تأتي بقوتها على كل جبروت وطغيان ! . بل هكذا  
الإنسان الهزيل الكليل الضئيل ، يهاب القوى فيفر من وجهه ،  
ويحذر لقاءه ، فإذا لقي من هو أضعف منه أرضى غريزة السيطرة  
والاستعلاء في نفسه بالتحرش به والاعتداء عليه ، وتعتساً لذلك المخلوق  
الضعيف الذي يقف وقفة الذليل المهين أمام الفاتك الجسور ، ثم يقف  
وقفة الغاشم الظالم أمام الضعيف المسكين : « إن الإنسان لكفور » ،  
« وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى  
البر أعرضتم ، وكان الإنسان كفورا » ، « وإذا أنعمنا على الإنسان  
أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر كان أثموسا » ، « ولو رحمتهم  
وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون » ، « لا يسأم  
الإنسان من دعاء الخير ، وإن مسه الشر فيؤوس قنوط » ، « ولئن  
أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن : هذا لي ، وما أظن الساعة  
قائمة ، ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى ، فلننبئن الذين  
كفروا بما عملوا ، ولنذيقنهم من عذاب غليظ ، وإذا أنعمنا على الإنسان  
أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض » ، « وجاوزنا بيني

---

= فصاح بهم : ويحك يا أسماك التراب ! . . . ورأيت طفلاً منهم قد جاء فوكز  
البحر برجله ! . . فضحك وقال : انظروا يا بني آدم ! . أعلى الله أن يعاب بالمغرور  
منكم إذا كفر به ؟ أعلى أن أعاب بهذا الطفل كيلاً يقول إنه ركني برجله ؟ .

إسرائيل البحر ، فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدوا ، حتى إذا أدركه  
الغرق قال : آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من  
المسلمين . آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين .

\*\*\*

وطال لبثي بين أمواج البحر حتى كدت أشبع منه أو أزهد فيه ،  
وحتى كلت أعضائي وفترت همتي ، وهتفت بي هاتفت من هواتف الفلسفة  
والتفكير ، أو وسوس لي أحد الشياطين — لست أدري — فأخذت  
أسائل نفسي وقد تسرب بعض الماء الملح إلى حلقى وأفسد على رياضتى :  
لِمَ خلق الله هذا البحر المالح بهذه السعة المتسعة ؟ ولم جعل ماءه ملحاً  
ولم يجعله عذباً فراتاً ؟ . . . وكان هذا التساؤل فاتحة لسلسلة من  
التأمل والنظر .

قلت لنفسي أولاً : وما شأنك أنت ، وما مبلغ حكمتك وبصيرتك  
حتى تعترضى أو تستجوبى ؟ .

لقد خلق الكون خالقه ، وهو العليم الحكيم ، فما يتصف إلا  
بكل كمال وجمال ، ولا يصدر عنه إلا ما هو حق وخير . ثم تعالى أيتها  
النفس الأمارة بالسوء ، الطلعة إلى الجهول ، التي لا تقنع باليسير ، بل  
تتعلق بأهداب كل ممنوع . . ألم يخلق الله المبدع الحكيم ما هو عذب  
وملح ؟ . . ألم يقل : « وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات ،

وهذا ملح أجاج ، وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً « ؟ .  
فلعله — سبحانه وتعالى — قد أراد — وهو الأعم بمراده —  
أن نعرف قيمة العذب الحلو الجميل حينما نقارنه بالماء المالح الممجوج ،  
وبضدها تتميز الأشياء كما يقولون ؛ ولولا وجود الشر ما عُرف الخير ،  
فالأمور نسبية ، والمقارنة هي التي تظهر الفاضل والمفضول .

ثم تعالى آيتها النفس مرة ثانية . أمّا تستطيعين أن تنظري فتبصرى  
للبحر فوائد ومنافع كل منها عظيم جليل ؟ .

لقد خلق الله الحكيم العليم هذا البحر ليكون مسبحاً للأسماك ،  
تنمو فيه حتى تصير غذاء شهياً ولحمًا طرياً ، نأكله فنلتد منه ونصح به ؛  
وكذلك خلق الله هذا البحر ليجعله مستقراً لتلك اللائىء والخرائد التي  
نبحث عنها فنجدها فنزين بها صدور كواعبنا ومعاصمهن ؛ وكم في أعماق  
البحر من هذه الفرائد من حلى تنفق في سبيلها الأموال الطائلة  
والجهود الجبارة .

وكذلك خلق الله البحر الواسع ليكون طريقاً سهلاً ميسوراً  
للفلك والسفائن ، تسير فيه بهوادة ولين ، فتحمل أثقالنا وأحمالنا التي  
لا نستطيع حملها إلا بشق الأنفس ، وتسرى بهذه الأحمال المرهقة إلى  
بلاد بعيدة وجهات نائية لا نبلغها بها إلا إذا أنفقنا الليالى والأيام ،  
وأسلنا العرق أو الدمع أو الدم . استمعى آيتها النفس إلى الحق إذ يقول

عز من قائل : « وما يستوى البحران : هذا عذب فرات سائح شرابه ،  
وهذا ملح أجاج ، ومن كل تأكلون لهما طرياً ، وتستخرجون حلية  
تلبسونها ، وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون »  
واستمع إليه يقول : « ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام ، إن يشأ  
يسكن الريح ، فيظللن رواكد على ظهره ، إن في ذلك لآيات لكل  
صبار شكور ، أو يوبقهن بما كسبوا ويعفو عن كثير » .

وكذلك خلق الله هذا البحر الواسع ، وملاه بذلك الماء الكثير  
ليكون سبباً في المطر الذي يسوقه إلى الأرض الجزر فيخرج به زرعاً ،  
تأكل منه الأنفس والأنعام ، ويسلكه في الأنهار ليكون بهجة  
وشراباً ، وسبباً للحياة والنماء ، ووسيلة للخير والبركة : « إن في خلق  
السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في  
البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض  
بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب  
المسخر بين السماء والأرض لآياتٍ لقوم يعقلون » .

فالشمس تلتقي بأشعتها القوية الحارة على سطح الماء في البحار ،  
فتجفف الكثير منه ، ويرتفع بخاراً إلى طبقات الجو العليا ، ثم يتجمع  
ويتكاثف ، حتى يصير سحباً وركاماً ، ثم تصرفه الرياح ذات اليمين  
وذاة الشمال ، حتى يأذن الله له بأن يتحول إلى قطرات من السيل

تهمى عل وجه الأرض ، فتبعث الهامد وتحرك الراكد ، وتنفخ الحياة  
في الجامد : « وهو الذى أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ، وأنزلنا  
من السماء ماء طهورا ، لنحيي به بلدة ميتاً ، ونسقيه مما خلقنا أنعاماً  
وأناسي كثيراً » ، « ألم تر أن الله يزجى سحاباً ، ثم يؤلف بينه ، ثم  
يجعله ركاماً ، فترى الودق يخرج من خلاله ، وينزل من السماء من جبال  
فيها من برد ، فيصيب به من يشاء ، ويصرفه عن من يشاء ، يكاد سنا برقه  
يذهب بالأبصار » ، « وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ، وينشر  
رحمته ، وهو الولى الحميد » .

وكذلك خلق الله البحر ليكون امتحاناً واختباراً ، وسبب يقين  
وإيمان ، واتعاظ وارتداع ، فنحن مضطرون إلى ركوبه حتماً ، ولو شاء  
ربك لاستدرجنا من حيث لا نعلم حتى نركبه ، ثم يغرقنا فيه جزاء  
غرورنا وطغياننا ؛ ولو شاء لزداد في « المد » قليلاً فإذا نحن طعاماً لأسماء  
وحيتانه ؛ ولو شاء لأغرقنا ونحن آمنون فوق ظهره ، لأننا مهما أوتينا  
من دقة الاختراع والابتداع والإحكام في سفين الماء لا نأمن الغرق ،  
فلببحر أسراره وأخطاره ، وبدواته ونزواته ، وسلطانة وطغيانه ؛  
وهنا عبرة وعظة ، هنا يدرك الإنسان ضعفه أمام جبروت الخالق ،  
وذلتة أمام عزته وعظمته ، فيؤمن ويوقن : « وإذا غشيهم موج



كالظلم دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد ،  
وما يجمعد بآياتنا إلا كل ختار كفور» !! .

وكذلك خلق الله العلي الكبير هذا البحر وأمثاله ليكون ملطفاً  
لحرارة الجو في الصيف ، فتهب منه النسيمات الساحرة الأخاذة ، التي  
تصافح الوجوه وتنعش الصدور ، وتهديء الأعصاب وتعيد النشاط ؛  
وعند ما تتدبر تلك الظاهرة الجغرافية التي تتكرر كل يوم ، والتي  
يسمونها « نسيم البر والبحر » ، تدرك مبلغ ما يؤديه البحر لمجاوريه من  
يد مذكورة مشكورة ! .

وكذلك خلق الله هذا البحر وجعله ملحاً للنفع لا للضر ، وللخير  
لا للشر ، فمن هذا الماء الملح يأخذ الناس تلك المادة الأساسية اللازمة  
للطعام ولغيره من الشئون : مادة « الملح » التي لا يستغنى عنها فرد من  
الناس ، والتي أراد الله لحكمته وعلمه أن يجعلها من السكثرة والوفرة  
بحيث لا تستعصى على طالب ، فبثها بكثرة في هذه المياه المالحة لتستخرج  
منها بوساطة « الملاحات » أو غيرها من الوسائط ! .

وهذا الملح نفسه يعطى الماء كثافة لازمة لسهولة الملاحة والسير  
بالسفن في البحار ، وبذلك تستطيع السفن الهائلة الهياكل الثقيلة  
الأحمال أن تسير فوق الماء الملح ، دون أن تخشى غرقاً أو فرقا أو صعوبة ؛  
وهناك كثير من « الجوارى المنشئات في البحر كالأعلام » لا يتيسر

لها أداء مهماتها في الأنهار العذبة كما يتيسر لها في البحار الملحة .  
وهذا الملح نفسه مفيد للأجسام التي تستحم فيه ، فبه من المواد  
الطبيعية الطبية ما يقضى على جانب من علل الأجساد ، ويبعث فيها  
الفتوة والشباب ! وكم من ملايين نعموا بالاستحمام في هذا الماء فوجدوا  
فيه الدواء والشفاء ! .

وكم في هذا البحر من حيوانات مائية كثيرة الفوائد مختلفة المنافع  
لا تعيش إلا في الماء الملح ، والإنسان المقتدر يتذرع بحيلته وفنه فيصيدها ،  
ويتخذ منها الإدام والدواء والغذاء والزينة وغير ذلك ، وإن عجائب  
البحر في هذه الناحية لأعظم وأجل من عجائب اليابسة والهواء ! .

والبحار فوق هذا فواصل إلهية خالدة بين هذه الأمم المتباينة ،  
والدول المزدهمة بالسكان والأحياء ، وحسبك أن تتصور بعين خيالك  
هذه الكرة الأرضية وقد تراصت فوق سطحها القرى والمدن والدول  
والأمم ، بلا فواصل أو حواجز طبيعية كهذه البحار أو الجبال  
أو الصحراء ، لتدرك أن الله قد أنعم على الناس فأسبغ عليهم النعمة بهذه  
البحار التي لطفت من حدة هذا الازدحام المرهق العصيب ! .

ولقد قرأت في مجلة الهلال الصادرة في أكتوبر سنة ١٩٠٨ م  
ما ملخصه أن السير وليم كروكس رئيس مجمع تقدم العلم الإنجليزي وضع  
منذ سنين إحصاء يبين به أن الأرض لا تبلغ سنة ١٩٢٨ م حتى تقل

المواد الغذائية البرية ، لكثرة التناسل بين البشر ؛ ولَمَّا خشي العلماء أن يقع العالم في مجاعة عامة ، أخذوا ينظرون في الوسائل الواقية من ذلك ، وكتب أحدهم يقول إن في قاع البحار وعلى شواطئها وسواحلها أصنافاً من النباتات البحرية لا تقل القيمة الغذائية فيها عما في أفضل النباتات البرية ، وذكر أسماء عدة أصناف منها تكثر في المحيط الإطالانطيقى عند شواطئه الغربية ، وقال : « إن في سواحل مقاطعة (سرقوسة) فقط من النباتات البحرية ما لو أحسن استخراجُه ومعالجته لكفى لتغذية سكان أوربا كلها طول السنة ، ولكنها متروكة للطبيعة ، تنمو وتذبل وتنحل ، ولا يلتفت إليها أحد » . فكيف لو أحصينا ما في البحار الأخرى ، ذاكرين أن مساحة هذه البحار أكثر من ضعف مساحة اليابس ؟ .

وليس الاغتذاء بالأعشاب البحرية بدعا عند الناس ، فبعض الأمم تفتدى بها كما في اليابان والصين وجزائر المحيط ، وقد مرّت عليهم دهور ولا غذاء لهم سواها ، وفي النباتات البحرية ما في البرية من مواد الغذاء اللازمة للأجساد ، فلم لا يلتفت العالم إليها للانتفاع بها عند الحاجة ، بدل أن يذهب منها سدى كل عام عدة ملايين من الأطنان على شواطئ أمريكا فقط ؟ ! .

وهكذا وضع ربك جليل النعم وعظيم الآلاء في سائر الأرجاء  
والأنحاء ، ولكن أكثر الناس لا يعقلون ! .

والبحر أخيراً منظر جميل وصورة رائعة يقف أمامها الإنسان  
مسحوراً مبهوراً ، دهشاً مغموراً بفتنة هذا الجمال . فالماء الذي يعكس  
زرقة السماء على صفحته فيبدو أزرق اللون ، وهذه القبة العالية التي  
ترين سماء هذا البحر ، وهذا الهواء الرقيق اللطيف ، وهذا الهدوء  
الخالص من لعب الحياة وضوضاء الأحياء . . . كل هذه نعم لا يؤدي  
الإنسان حق شكرها لخالقها ولو أفنى عمره في الصلاة والتكبير ! .

وإن شئتم فاسمعوا ما يقوله الإمام ابن القيم في كتابه « زاد المعاد »  
عن ملوحة البحر : « وقد جعله الله سبحانه ملحاً أجاجاً مرّاً زعاقاً لتمام  
مصالح من هو على وجه الأرض من الآدميين والبهايم ، فإنه دائم  
راكد كثير الحيوان ، وهو يموت فيه كثيراً ولا يقبر ، فلو كان حلواً  
لأنتن من إقامته وموت حيوانه فيه وأجاف ، وكان الهواء المحيط بالعالم  
يكتسب منه ذلك وينتن ويجيف فيفسد العالم ، فاقتضت حكمة الرب  
سبحانه وتعالى أن يجعله كالملاححة التي لو ألقى فيها جيف العالم كلها  
وأنتانه وأمواته لم تغيره شيئاً ، ولا يتغير على مكثه من حين خلق ،  
وإلى أن يطوى الله العالم ، فهذا هو السبب الغائي الموجب لملوحته ،  
وأما الفاعلي فكون أرضه سبخة مالحة ؛ وبعد فلاغتسال به نافع من

آفات عديدة في ظاهر الجلد ، وشر به مضر بداخله وخارجه ، فإنه يطلق  
البطن ويهزل ، ويحدث حكة وجرباً ونفخاً وعطشا ، ومن اضطر  
إلى شربه فله طرق من العلاج يدفع به مضرته ، منها أن يجعل في قدر  
ويجعل فوق القدر قصبات وعليها صوف جديد منفوش ، ويوقد تحت  
القدر حتى يرتفع بخارها إلى الصوف ، فإذا كثر عصره ، ولا يزال يفعل  
ذلك حتى يجتمع له ما يريد ، فيحصل في الصوف من البخار ما عذب  
ويبقى في القدر الزعاق ، ومنها أن يحفر على شاطئه حفرة واسعة يرشح  
ماؤه إليها ، ثم إلى جانبها قريبا منها أخرى ترشح هي إليها ، ثم الثالثة  
إلى أن يعذب الماء « اه .

سبحانك أيها الإله العظيم ، سبحانك أيها الحكيم العليم ،  
سبحانك أيها المنعم الوهاب ، سبحانك أيها المبدع الخلاق ؛ تعالت  
كلمتك ، وجلت قدرتك ، وبهرت آلاؤك ، وفاضت نعمائك . . .  
أمنت بك ثم آمنت ثم آمنت ! . . . وخشعت لك النفوس ، وخضعت  
الجباه ، وسبح باسمك كل شيء في الوجود : « تسبح له السموات  
السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن  
لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حلما غفورا » ! .

(٦)

## لواذع الحرمان

وفي المصيف يحس كل عزب ممن تلذعهم لواذع الحرمان ، ولم يذوقوا  
نعيم الزوجية ، ولم ينعموا بجمال الأسرة ، ولم ينهضوا بتبعات الأبوة ،  
يحس بعميق الأسى والألم ، فهو كالتائه الشريد ، أو الغريب الطريد ،  
الذي يمر على المغاني تعمرها الأمانى ، ويشهد الأسر وقد حاطتها يد الله  
بأفواف من الغبطة والسعادة ، ويرى البيوت تنبعث منها الأضواء  
والأنوار ، وتزدهر فيها الرياحين والأزهار ، وتتردد فيها نغمات المثلث  
والمثنائى ، وتمتلئ جذلاً وحبوراً بأصوات الأطفال والأبناء ، فيألم ويندم ،  
ويشعر بعظم ما هو محروم منه من الخير والفضل ، ويخيل إليه كأنما قد  
قسّمت الحظوظ والجدود على أهلها ، وبقى هو بلا نصيب ؛ فمتى تكون  
له شريكة كهؤلاء ؟ ومتى يبني عش زوجية كما بنى هؤلاء ؟ ومتى يقيم  
دعائم أسرة كما أقام هؤلاء ؟ ومتى يكون له أبناء كما لهؤلاء ؟ ومتى  
ينهض بتبعات الأبوة كما ينهض هؤلاء ؟ ... متى أيها الغيب  
المحجوب ؟ ! .

ولا خير في الدنيا إذا أنت لم تزر حبيباً ، ولم يطرب إليك حبيب !

إنك أيها الشريد الطريد لترى بعينيك أولئك الأطفال الذين  
يسرحون ويمرحون ويلعبون ويطربون ، وإنك لتسمع بأذنك أصواتهم  
فتحسبها أشجى الأغاني وأحلى الأمانى ، فمتى تستقر من سفرك ، ومتى  
تلقى عصا تسيارك ؟ ومتى تعرف لك أيها الطائر الحائر عشا تلجأ إليه  
كلما دهمك المساء ؟ . . .

طريد الحياة ، ألا تستقر ؟ ألا تستريح ؟ ألا تهجع ؟ !  
متى أيها الوحيد الفريد الذى تحتال على دنياك بكل حيلة ، فلا  
تنقاد لك ولا تدنو منك ، لأن قيادها هناك فى يد ذلك الرفيق الأليف ؟ .  
متى يكتب لك القدر ما كتب لغيرك من توفيق ، فتعيش فى نفسك  
وفى زوجتك وفى ذريتك بدل أن تنطوى على ذاتك ، فلا السعادة  
أدركت ، ولا السبب وصلت ، ولا مرتبة المجاهدين بلغت ، بل عشت كما  
يعيش العصن المفرد عن شجرته ، تطوى بحلول أجله حياته وتبلى رفاقته ! .  
وإنك لتقرأ أيها المعنى المشرذ الذى لا يستقر ولا يستريح ولا يهجع  
قول ربك عز من قائل : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا  
لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودةً ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم  
يتفكرون » . وقول رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم : « الدنيا كلها  
متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة » .  
وإذا كان « أناتول فرانس » قد قال : « المرأة هى الشئ الوحيد

الذي تركه الخالق ناقصاً ليكماله الرجل « فإني أقول : والرجل هو  
الكانن الذي يظل حائراً مضطرباً حتى تأتيه امرأته المنشودة فيهدأ  
ويستقر ، وما المرأة والرجل إلا قطبان إذا التقيا دارت عجلة الحياة ،  
وامتد سبب البقاء ! . . .

فمتى يكون لك زوجة أيها المكسور المشطور ، لتجد عندها المودة  
والرحمة ، ولتسكن إليها بعد تعبك ونصبك ، ولتشاركك سرّاءك  
وضرّاءك ، ولتتأدى بها ملكة على عرش بيتك ، فتلك زينة حياتك  
من البنين والبنات ، وتحفظ غيبك ، وتصون عرضك ، وتجمع شتاتك ،  
وتدبر شؤونك ، وتسرك إذا نظرت ، وتطيعك إذا أمرت ، وتجبرك إذا  
انكسرت ، وتسترك إذا تعريت ، وتشاطرك إذا حزنت ، وتشاركك  
إذا فرحت ؟ . . .

متى أيها المسكين ؟ متى متى ؟ ! . . . إنك لتحب وقامل وترجو ،  
وإنك لتقف في مفترق الطرق حائراً متبلبل الخاطر ، تتصفح الوجوه  
وتستعرض الألوان ، ولا تصل إلى بغيتك أو غرضك ، فمتى تلقى عصا  
التسيار ، ومتى يقربك القرار ، وتردد مع القائل :

فألت عصاها واستقر بها النوى كما قرَّ عيناً بالإياب المسافر !

إن الدم يغلي في عروقك غليان الماء في المرجل ، وإن أعصابك  
تتجاوب ، أو تتحارب وتتضارب ، وإن فؤادك ليخفق بذكر الأليفة ،



وينبض بالحنين إليها ، وإن لسانك ليردد الحديث عنها بتصریح أو تلمیح  
من قريب أو من بعيد ، وإن خيالها المثير يغادرك ويراوحك ، ويطلعك  
في إصباحك وإمسائك ، وليلك ونهارك ، وسكونك وحركتك ،  
وصمتك وحديثك ، وإن هاتفاً يهتف بك دائماً وفي إلحاح : لن تهدياً  
إلا إذا كانت لك امرأة ، تهذب من فوضاك ، وتنظم من شذوذك ،  
وترتب أمورك ، وترعى كباثرك وصغائرك ، وتستريد الحكمة والرحمة  
والحنان والحب نقصك وعيبك ، وتبنى لك مملكة صغيرة ، وفردوساً  
محبوباً يسمونه « بيتاً » تدخله بعد طول نضال فتنسى متاعبك ،  
وتستجم نشاطك ، وتسترد ما فقدت من راحتك وهدوئك في معترك  
كله هموم وأغوب ! . . .

إن كل عزب حساس يقف هنا ويهتف :

أيتها المغاني والأعشاش التي تنبعث منك الأنوار والأضواء متلاثلة  
ساطعة ، وتبدو فيك الحياة قائمة عامرة باهرة ، وتتعالى فيك أصوات  
الآباء والأمهات ، ونغمات الأبناء والبنات ، وصراخ الأطفال ؛ وحرركات  
الخدم ، وتتردد في جنباتك الأهازيج والأغاريذ من السكواعب الغيد ،  
ومن المذيع والخاكي ، ومن الأحباء والأصفياء ، وتزدان أبهاؤك  
وغرفاتك بالسرر المرفوعة والمخادع الوادعة ، والمقاعد الوثيرة ، والنمارق  
المصفوفة والزرايبي المبتوثة والموائد المعمورة والبسط الممدودة والزهريات  
الحافلة بنواضر الرياحين وأطياب الأزهار ! . . .

أيتها المغاني التي تسرح فيها الآمال ، وتتهادى في آفاقها طيور  
الأمانى ... خفنى قليلا من أصواتك واستمعى إلى ذلك الصوت الحبيس  
الحزين ، واذكري أن هناك من يمر بك فيشهد ما فيك من جمال وفتنة  
ودعة ، فتلذعه نيران الحرمان ، ويستبد به الشوق والحنان ، ويتحسر  
على مفات من شبابه، وماطوى من كتابه ، ومابلى من إهابه ، وماضاع  
من رغبه ؛ ويسائل نفسه في حرقة ولوعة : متى يكون لك أيها المحروم  
المأزوم ما لهؤلاء السعداء من غبطة وهناء ؛ ونعيم مقيم ، وماوى كريم ،  
وإلف رحيم ! ؟ ...

وأين أنتم يا أحبائي ؟ ! .. أين أنت يا زوجتى المنتظرة ويا أولادى  
المنشودين ؟ .. أعلى بعد خطوات منى أم على بعد أميال وأميال ...  
أأنت الآن أيتها الزوجة فى دنيا الواقع وعالم الوجود ، أم لاتزالين ضميراً  
مستتراً فى حجب الغيب وعالم المستور ؟ ...

ليت لى سبيلا إلى هتك ذلك الحجاب ، وقراءة ما سطر فى الكتاب .  
إذن لاطفات نار شوقى ، واخترت لنفسى ، وأرسيته سقيتى ؛ ولكن  
كيف السبيل إلى ما ليس إليه من سبيل ؟ ! ...

\*\*\*

وى ! ... هذا مسجد رأس البر الشامخ السامق . هذا هو  
البناء الذى أسس على التقوى ؛ ليدعو الناس إلى ربهم ؛ وليذكرهم

بواجبهم الديني وسط هذا المعمعان ، وخلال تلك الضجة العالية العاتية .  
هذه هي الدار الطاهرة المطهرة التي استقرت هنا في هذا المكان لتكون  
نقطة ارتكاز ومبدأ انتشار للدور والمنازل . . . وأكرم بمحلة ينهض  
بنيانها أول ما ينهض على دعائم مسجد كريم . . . هذا هو المسجد  
الذي يزدان بمئذنته العالية وفنائه الرحيب وفراشه الوثير وبنائه الشرقي  
البيديع ، وحماه الواسع المتراحي . . .

لقد نهكنا المسير وأرهقنا التجوال ، وقد آذنا وقت العصر ، وكادت  
فريضة الظهر تذهب وتتفلت ، فلنسارع بالدخول إلى المسجد ، ولنتوضأ  
على عجل لندرك الفريضة ، ثم لنجلس منعمين النظر في أبهاء المسجد  
وجدرانه ومنبره ومحرابه وزينته ونقوشه ، ولنستريح داخله معتكفين حتى  
تجب صلاة العصر فنؤديها حامدين لله شاكرين .

ما أعجب مفارقات الحياة . . . هنا في داخل المسجد قوم يتحنثون  
ويتعبدون ، ألمح فيهم الكثير من الخدم والبوابين والطباخين ، وبجوار  
المسجد ، أو على بُعد خطوات منه ، يوجد قوم آخرون يلعبون ويلهون ،  
وبعضهم يفسقون ، وبأجسادهم يتاجرون أو يفاخرون ، فكيف اجتمع  
في واد واحد البرّ والفاجر ، والصالح والطالح ، والخير والشرير ،  
والعابد والفاقد ؟ . . . تلك حكمة اختص بأمرها وعلمها الحكيم  
الخبير ! . . .

وفي المسجد جلست إلى جوار رجل يلوح لي أنه كان يحمل نقوداً كثيرة في حافظته ، وتلاصق جسمه وجسمي دون قصد مني ، فنظر إليَّ الرجلُ بريبةً وشك ، إذ حسبني من صعاليك الرعية أو مهرة السارقين . . . . . وكنت ألبس (المنامة) فليس هناك ما يدل على عملي أو طريقتي في الحياة ؛ وجعل الرجل من حين لآخر يتحسس جيبه الذي وضع فيه محافظته ، والذي كان في جهتي ، في خفية وحذر ، ليتأكد أنني لم أسرق نقوده ، وجعل يسارقني النظر متوجساً شراً من ناحيتي ، وجعلت أنا كلما نظر نحوي نظرتُه الشاكة الفاحصة أغلب ابتهام ، فيبدو على وجهي على الرغم مني ، فيزداد الرجل حيرة وارتباكاً ، أو شكاً وارتباكاً ؛ ولكن ماذا أفعل له ؟ وكيف أدخل الطمأنينة على نفسه ؟ . . . وأخيراً تشجعت فقلت له وأنا أبتسم : أتخاف مني يا سيدي ؟ . . . فازداد ارتباك الرجل ، ولكنه حاول التظاهر بالاطمئنان وقال : لا ، ولم أخاف منك ؟ . قلت : يلوح لي أنك تتوهم أنني لص سأسرق نقودك التي في جيبك هذا ! (وأشرت إلى جيبه) ، فدهش الرجل وفزع وقال : ومن أنباك أنني أحمل نقوداً ؟ . . .

ورأيت الأمر سيزداد حرجاً وضيقاً فقلت له : كل ما أريده منك يا سيدي هو أن تطمئن ، وأن تعلم أنني بفضل الله في غنى عن كل ما في الدنيا ، وأن لي من متاعى وثقافتى ورسالتى ما يحول بيني وبين السرقة

أو العدوان على أى إنسان كائناً من كان ! . فسكت الرجل ولم يجب ،  
ولما وقفنا لصلاة الجماعة — والرجل إلى جانبي يحاذرنى ويتجنبنى ،  
وبدأت أنوى بلهجة أزهرية فصيحة — أخذ الرجل فيما يبدو لى  
يصحح فكرته عنى ، ويستعيد بالله من الشيطان الرجيم ، فى صورة من  
يطرد عن ذهنه فكرة خبيثة خاطئة لا يليق به أن يفكر فيها . . . . ولما  
سمعتى الرجل فى الصلاة أقرأ الفاتحة وشيئاً من القرآن الكريم بترتيل  
وتجويد ازداد اطمئناناً ؛ وصاحنى عقب الصلاة بحرارة ، وسألنى من  
أكون ، فعرفته بشخصى وعملى ، وظهر أنه يقرأ لى ، فاحتفل بى وبالغ  
فى اعتذاره لى ، ولكنى سبحت فى آفاق من التفكير . . . .

هكذا يجنى الشر على الخير ، وهكذا يكون سوء الظن سبباً فى  
ارتكاب الإثم ، وهكذا استطاع المفسدون فى الأرض المعتدون على  
الناس أن يجعلوا كل إنسان سيء الظن بمن يلقاه أو يصادفه لأول  
مرة ، ورحم الله العامة حين قالت : إن ابن الحرام لم يترك لابن الحلال  
شيئاً ؛ وكم فى السجن من مظلومين ! . . . .

\*\*\*

وخرجت من المسجد وأنا أتلفت يميناً وشمالاً ، وأرمى ببصرى هنا  
وهناك ، فلا أرى شيئاً مبنياً فى رأس البر ؛ لا أرى عمارة ولا قصرأ  
ولا فندقاً ثابتاً ، فإن رأس البر إلى اليوم تستخدم الأعشاش من القصب

والخشب لمدة المصيف فقط ، ثم يقوض كل شيء في آخر المصيف ،  
وتظل رأس البر طيلة العام بقعة رملية خالية ، لا مأوى فيها ولا مسكن  
بها ، إلا بضعة أكواخ في ناحية لمن تربطهم ظروفهم وحياتهم برأس البر  
على الدوام ؛ ولكنه يغلب على ظني أنه لن تمر سنوات معدودات حتى  
تصبح رأس البر مدينة عامرة ، فيها قصور ومنازل ، وفنادق وملاعب ،  
وشوارع وميادين ، وسيكون هذا المسجد الأنيق الجميل واسطة عقد  
هذه المدينة الجديدة ؛ وأخشى ما أخشاه أن تمتد يد الصناعة والمدنية  
الزائفة إلى شاطئ رأس البر الطبيعي الساحر ، فتحيله إلى مدينة معقدة  
وبلدة مشتبكة الأمور والمصالح ، فيفقد بذلك أكبر مزاياه وأفضل  
سجاياه ، وهو تمثيله للطبيعة الخالصة ، والجمال الإلهي الخالد ! ..

فيا أيها المشرفون على رأس البر في مستقبل الأيام ، احذروا أن  
تمتد أيديكم بالتشويه والتبديل إلى هذا الجمال الأصيل ، واحذروا بوجه  
خاص أن تبدلوا شيئاً من شاطئ رأس البر المنفسح السهل الجميل ،  
فاجعلوا تعميركم بمقدار ، وزنوا تغييركم بميزان ! ...

\*\*\*

وفي الأصيل قال الرفاق لنا : هيا بنا إلى « اللسان » ! ...

إلى متعة المتع في رأس البر ...

و « اللسان » برزخ ممتد داخل الماء ، يفصل بين النيل المبارك

والبحر الأبيض ، وهو أشبه بخرطوم مبسوط ممدود ، أو رأس زاوية  
ينتهي عندها اليابس ، ويبدأ بعدها التقاء الماء العذب الفرات بالماء  
الملح الأجاج . . .

وسعينا طويلاً حتى قطعنا طريقاً مرصوفاً استغرق وقتاً كبيراً  
واستنفد مجهوداً مضمياً ، ولكن : لا بد دون الشهد من إبر النحل ،  
ومن يخطب الحسنة لم يغلها المهر ، وها نحن أولاء نبلغ « اللسان » بعد  
طول المسير !! . . .

تبارك الله أحسن الخالقين ! . هذا هو السحر ، وهذا هو الشعر ،  
وهذا هو الخيال والجمال والجلال . . هنا الهواء الجبار الذي يهب عاصفاً  
ولكنه مرغوب ومحبوب ، وهنا الجلسة الخالية الهادئة التي تبعث العزم  
وتعيد الشباب وتبدأ الحياة من جديد ، وإلى هنا تهرع الجموع كل  
أصيل ، ليختموا يومهم الذاهب بأفضل ما يشهدون وأسمى ما يتمتعون ؛  
وهنا تبلغ نهاية اليابس فتري الأمواج الشديدة التي لا تطاق ، ولا يشق  
ثورتها سابح أو سفين ؛ ولذلك يضعون أمامها بجوار اليابسة صخوراً  
هائلة لتتكسر عليها حدة هذه الأمواج ؛ وتستبدل هذه الصخور من  
حين لحين ، لأن شدة الموج تفتتها وتأتي عليها بسرعة غريبة ؛ وهكذا  
يريك الماء السائل الرقيق كيف يقوى ويشدد ؛ حتى يرغم العنيد ويحطم  
بالجمود ؛ فلا تحتقر ضعيفاً ، ولا تستهن بقليل ، قرب قليل غلب الكثير . . .  
وهنا منظر غروب الشمس الذي طالما تغنى به الشعراء والأدباء .

ودبجوا فيه كلماتهم ، ونظموا فيه قصائدهم ؛ ولو رأوه هنا لنههوا من  
غرورهم ، ولاقتصدوا في فخرهم بنظمهم ونثرهم ، فلن يستطيعوا مهما  
أوتوا أن يصفوا ذلك المنظر الفريد حق وصفه . . . ماء ونار يلتقيان ،  
فيصنعان أبهى المناظر وأشهى الصور وأعلقها بالقلوب والأرواح . . .  
وهنا تجلس وتستعصى على رجاء الانتقال أو التحول . . . هنا  
تتمنى أن تعيش عمرك كله ولو حرموك من كل شيء ، وهنا تظل تعب  
من الهواء النقي عبا ، وتفتح عينيك لمنظر الغروب العجيب فتحا ،  
وتنشر صدرك لنسيم البحر نشرا ، وتترك جسمك وأعصابك لذلك  
الطيبب النطاسى البارع الذى لا تخيب يده ولا يفسد دواه ! ..  
هنا شواهد الإيمان قائمة هاتفة ، فأين يذهب المبطلون ! .. هنا  
يد الله المبدع الخلاق ، فأروني ماذا خلق الذين تدعونهم من دونه  
أيها الجاحدون الأغرار !

إنك لحبيب إلى نفسى أيها البحر عزيز على أثير لدى ، وإبنى  
لأخشى فراقك الأليم ، فأطل — بحق ضعفى أمام قوتك — جبل  
وقوفى عندك ، وابتهالى لديك وسعادتى بك ، وعبادتى لربى فى محرابك . . .  
أطل جبل هذا اللقاء أيها البحر فأبنى حزين مأزوم ، ومشوق محروم ،  
ولن أنسى ما حيت هذه اللحظات التى أقضيها فى رحابك ، واقفاً يابك ،  
قارئاً فى كتابك ، متعلقاً بأسبابك . فلا تنس بحق جلالها وجمالها  
— يا بحر — هذه اللحظات ! ..



## الليل على الشاطيء

وجمعت الشمس خيوطها الزاهية البيضاء ، بعد أن نال منها طول  
السرى فأحال بياضها إلى اصفرار ، وتهادت الغزالة إلى خدرها كما يقول  
الأدباء ، أو انتقلت إلى قوم آخرين تعطيهم حظهم من الحياة والنور  
كما يقول العلماء ؛ وأقبل الليل بجحافله وحنادسه يفرض سلطانه  
على الشاطيء الحبيب ، وأقبل الظلام من بعيد زاحفاً في رهبة ليلف  
الأحياء في ثوب السكينة والإغفاء ، فهل استطاع الليل حقاً أن يرغم  
القائمين هنا على النوم أو الهجوع ؟ ! . . . هاهي ذى الأنوار تتلألاً ،  
والمشارب تكتظ بروادها ، والمسارح والملاهي تعج بأحلاسها ،  
والطرقات تفيض بأسراب الغانيات ، وتضج بكتائب الفتيان ،  
وهاهي ذى حياة الليل الصاخبة اللاعبة التي نشهدها في أحياء الترف  
من القاهرة والاسكندرية قد انتقلت إلى رأس البر . . . لا ، بل لقد  
نقلت إليها على الرغم منها ، فما يصلح الشاطيء الجميل لمثل هذا اللهو  
المرذول ، ولكن سمسرة المال وتجار الأعراض وعبيد الذهب قد أبوا  
إلا أن يجعلوا هذا الحرم الآمن الهادى متجرراً من متاجرهم ، وفخامن

فخاخهم ، فأتوا بمجاثلهم ووسائلهم ليستدرجوا الشباب والشباب  
إلى ما يعود بالخسار والبوار على أخلاقهم وأموالهم ! ...

ولكنى لست من العبث ، ولا العبث منى ، فأين أذهب ،  
وأين أفر بنفسى ، أو إلى أين تفر بى نفسى ؟ ... لا تبتأس يا صاح  
ولا تياس يا كسير الجناح ، وياسمير الأحزان والأتراح ، فتمّ مواطن  
للهدوء ، وهناك خلوات لصلوات الشاعر وسبحات الأديب ومناجاة  
الفنان وشطحات الصوفي ؛ وبمناى من هذا الصخب تجد فى رأس البر  
تحت جناح الليل محاريب تصلى فيها كما تشاء ، وصوامع تسمع فيها  
من صمتها نبض القلوب وهمس الخواطر ! ...

وفى أحد هذه المحاريب النائبة عن ضجيج الحياة جلست وأسلمت  
قيادى إلى ملك الخيال والتفكير ، ووليت وجهى شطر البحر الحبيب  
أملاً رثى من هوائه ونسيمه ، وأنا أسمع هديره الذى أخذ يشتد  
ويبلغنى من بعيد ، فيحدث فى جسمى رجفة ، وفى شعورى رهبة ؛  
وأمد بصرى هنا وهناك فلا أرى إلا ظلاماً خفيفاً ينبسط كأنه ليس له  
آخر ، ورمالاً مبثوثة على أرض الشاطئ تستمع فى صمت وسكون  
إلى لحن الحياة يردده الركب الذى يبحر بسفينته عباب الكون من  
أغوار الأزل إلى ساحل الأبد ! ... وأرفع بصرى إلى السماء فأرى  
هذه الثريات الدقيقة قد انتثرت فى جو السماء ، لتلطّف من سلطان

الليل وتخفف من صولته ، وتعطى القبة الإلهية. جمالا فوق جمال :  
أكنت من الدور أوفى القصور ترى هذه القبة الصافية  
كأن النجوم على صدرها قلأند ماس على غانيه !

وبقيت في مكاني من الزمن ما يعلمه الله ، وأنا أسبح في أجواء ،  
وأقلب في آفاق ، وأتنقل من عالم إلى عوالم ، فيها من الأطياف والرؤى  
والمعاني ما ليس إلى تصويره تصوير الصدق والحق والضبط من سبيل .  
وأخذ الهواء يشتد في هبويه ويعتد بقوته ، حتى خلشيت  
أن أضعف أمام عنفه وأنا المدلل بشبابي وقوة غلابي ، فأخذت أحسب  
حسابه ، وأرهب جنباه ، وتذكرت تلك القطعة الفنية العذبة  
التي سطرها قلم « جبران » يفاجى بها الهواء ، وفيها يقول :

« تمرا أنا مترنحاً فرحا ، وآونة متأوها نادبا ، فنسمعك ولا نشاهدك  
ونشعر بك ولا نراك ، فكأنك بحر من الحب يغمر أرواحنا  
ولا يفرقها ويتلاعب بأفئدتنا وهي ساكنة ...

تمساعد مع الروابي وتنخفض مع الأودية ، وتنبسط مع السهول  
والمروج ، ففي تصاعدك عزم ، وفي انخفاضك رقة ، وفي انبساطك  
رشاقة ، فكأنك مليك رؤوف يتساهل مع الضعفاء الساقطين ،  
ويترفع مع الأقوياء الشامخين ! .

في الخريف تنوح مع الأودية ، فتبكي لنواحك الأشجار ،  
وفي الشتاء تثور بشدة ، فتثور معك الطبيعة بأسرها ، وفي الصيف تعتل  
وتضعف ، ولضعفك تستفيق الحقول ، وفي الصيف تتواري وراء نقاب  
السكون ! ... أنت تهمس في أذن الوردة أسراراً غريبة تفهم مفادها  
فتضطرب تازة وطوراً تبتسم ! ... أنت تبطئ هنا وتتسارع هناك  
وتتراكض هنالك ، ولكنك لا تقف قط ، وهكذا تفعل فكرة  
الإنسان التي تحيا بالحركة وتموت بالسبات ! .. أنت تكتب على وجه  
البحيرة أشعاراً ثم تمحوها ، وهكذا يفعل الشعراء المترددون ...

من الجنوب تأتي حاراً كالحمية ، ومن الشمال تأتي بارداً كالموت  
ومن المشرق لطيفاً كلامس الأرواح ، ومن المغرب تتدفق شديداً  
كالبعضاء ؛ أمتقلب أنت كالدهر ، أم أنت رسول الجهات تبلغ إلينا  
ما تأتمنك عليه؟! .

تمر غضوباً في الصحارى فتدوس القوافل بقساوة ثم تلحدها  
بلحف الرمال ، فهل أنت ذلك السيال الخفي المتموج مع أشعة الفجر  
بين أوراق الغصون ، المنسل كالأحلام في منعطفات الأودية حيث  
تمايل الزهور شغفاً بك ، وتتخاصر الأعشاب سكرأ من أنفاسك؟ .  
إلى أين تتسارع بأرواحنا وتتهداتنا وأنفاسنا ؟ إلى أين تحمل  
رسوم ابتساماتنا؟ وماذا تفعل بشعلات قلوبنا المتطائرة؟ هل تذهب بها

إلى ما وراء الشفق ، إلى ما وراء هذه الحياة ، أم تجرّها فريسة إلى المغائر  
البعيدة والكهوف المخيفة ، وهناك تقذفها يميناً وشمالاً حتى تضمحل  
وتختفي؟! ..

في سكون الليل تبيح لك القلوب أسرارها ، وعند الفجر تحلك  
العيون اهتزازات أجفانها ، فهل أنت ذاكر ما شعرت به القلوب  
وما رآته العيون؟! ..

بين جنحيك يستودع الفقير صدى انسحاقه ، واليتيم حرقة ،  
والحزينة تأوهاتها ، وطى أثوابك يضع الغريب حنينه ، والمتروك لهفته  
والساقطة عويل نفسها ، فهل أنت حافظ لهؤلاء الصغار ودائعهم ،  
أم أنت كهذه الأرض لا نودعها شيئاً إلا تحوله إلى جسمها؟! ..

أسمع أنت هذا النداء وهذا العويل ، وهذا الضجيج وهذا البكاء  
أم أنت كالأقوياء من البشر تمتد إليهم الألف فلا يلتفتون ، وتتصاعد  
نحوهم الأصوات فلا يسمعون؟! .. أسمع أنت يا حياة للمسامع؟! ..

\*\*\*

وتداعت المعاني وتسلسلت الأفكار ، فإذا بكلمات جبران تنسيني  
ما أنا فيه ، وتنقلني من رأس البر إلى سهول أمريكا في طرفة عين ،  
فأتذكر طرفة أدبية حدثت هناك في صيف عام ١٩٢١ م ، إذ خرج  
جبران خليل جبران ونسيب عريضة وميخائيل نعيمة وعبد المسيح  
حداد ، وهم من كبار الأدباء العرب بالمهجر ، كي يتمتعوا بمناظر الطبيعة

والخلاء في مزرعة « كاهونزي » بأمریکا ، ولما دنا المساء ، وغابت الشمس ، ولف الظلام الكون ، أخذوا يسرون الهويني على الطريق العامة ، وهم في حديث ذي شجون ، وبينما هم كذلك إذ خطر لميخائيل نعيمة هذا البيت :

أسمعني سكينه الليل لحناً من نشيد السكينه الأبدية !  
فألقاه على مسامع رفاقه الثلاثة ، فوق من أنفسهم موقعاً حسناً ،  
وجعل كل واحد يتبعه بيت أو نصف بيت ، والآخر يزيد على ما قال  
سابقه ، وهكذا ، حتى أنشأوا من ذلك الأبيات التالية :

أسمعني سكينه الليل لحناً من نشيد السكينه الأبدية  
وافتحى يا نجوم عيني على أن أرى بينك الطريق الخفية  
واجعلى يارياح منك بساطاً واحمليني إلى الرياض العلية  
واخطفي يانسائم الليل روحى وخذيها منى إليك هدية  
ودعيني هناك أسرح حراً إنما العبد يشتهي الحرية  
طال سجنى ، وطال فى السجن يأسى واحتمالى لحالتى البشرية  
أنا مالى وللورى ؟ فارفعيني ودعهم فى بؤسهم والرزية  
ملّ قلبى بغضاءهم وهواهم ملّ قلبى سبابهم والتحيمه  
ولسانى قد صار يخشى لسانى وجناتى أضحى على بلية  
وفراشى شوكا ، ونومى ارتعاشاً ويقينى شكاً ، وبرى خطية

وشرابي تعلاً ، وأواما وطعاعي مجاعة روحية  
ولباسي رماد فكري ، تذييه رياح تثيرها الأمنية  
تلك حالي : حرب عوان ، فإن أظفر فنفسى قتيلة أو سبية !

ولست أدري . . . أتصور هذه القصيدة نفسية واحدة ، وتنبئ  
عن ذهن فرد من أفراد منشئها ، فنقول إن أفكار ذلك الفرد كانت  
ساعة الإنشاء للقصيدة قوية ، وكان ذهنه متوقداً ، فاستطاع أن يفرض  
شخصه وطريقة تفكيره على زملائه فقلدوه وتابعوه في تلك الساعة ،  
أم أن الناس جميعاً — وخاصة أصحاب الحس المرهف والشعور الفياض  
منهم — تتقارب أهواؤهم ، وتتلاقى أرواحهم في مثل هذه المجالى  
الطبيعية والسبحات الروحية ، التى ينسى فيها الإنسان أغراضه وأعراضه  
وأمرضه الاجتماعية والفردية ، ويلقى بنفسه بين تلك الأمواج النورانية  
المطهرة إلى حين ! . . .

\*\*\*

أوغل الليل فلنقم . . . وإنيك لعائد إلى هذه الجنة أو ذلك المعبد  
مرات ومرات ، فلئن فاتك اليوم بعض ما تريد ، إنك لطالبه فواجده  
عندما تريد ! . . .

ولكن مهلاً مهلاً ؛ فهذا هو القمر يشرق عليك وعلى الدنيا بعد  
طول انتظار ، ولاذع شوق وعاصف حنين . . . هذا هو القمر الذى

سامر المحبين ، وسائر الهائمين ، ونادم الهائنين ، وشاطر المحزونين ،  
وكان لكل من أراد هدياً ونوراً ، وفرحة وسروراً . . . فلتشرق أيها  
القمر ، ولتتربع فوق عرشك السماوي الذي لا يدانيه عرش ، ولتتناول  
صولجان سلطانك الذي لا يساميه سلطان ، ولتغمر الأبصار بضيائك ،  
والقلوب بفيض رحمتك ، والأخيلة ببديع وحيك ، ولتبتسط غلالتك  
الفضية الزاهية الباهية على كل شيء في الوجود ، على الدور والقصور ،  
على الجبال والرمال ، على الرياض والغياض ، على السهول والتلول ،  
على البحار والأنهار ، على العباد والجماد ، على الغبراء والسماء ، على  
اليابس والماء ، على الهواء والبناء ، على الأشقياء والسعداء ، على  
الأغنياء والفقراء ، فماتعرف قريباً وبعيداً ، أو عدواً وحيبياً ، أو معرضاً  
ومنيباً ، بل أنت للجميع على حالة سواء !!

هأنذا قريب مني ، أراك وأتمتع بنورك وضوئك ، ويخيل إلي  
أنك على بعد مئات من الأمتار فحسب ، وكأنني لو اتخذت إليك سلماً  
لبلغتك ، ولست صفحتك الرقيقة الناعمة البيضاء ، ولكن العلماء  
يقولون : إنك على الرغم من هذا الظن — بعيد جداً ، مع أنك أقرب  
جسم سماوي إلى الكرة الأرضية ، ويقولون : لو أن قطاراً سار نحوك  
بسرعة خمسين ميلاً في الساعة لوصل إليك في مائتي يوم ! . . .  
أفصحيح هذا أيها القمر ؟ ! .



ويقولون — وإنا لنعجب لما يقولون — : « قد يظن بعض الناس أن اقتراب القمر من الأرض مما يزيد جمالاً ، ومما يغمرها بهاء وسناء وسجراً ، ومما يجعل الإنسان يتمتع بنوره وبأشعته الفضية أكثر من تمتعه الحاضر ؛ قد يكون هذا الظن في محله ، فينعم الإنسان حينئذ بمناظر القمر ، ويجد فيها كل الجمال وكل المتاع ، ولكن ذلك لا يكون إلا بئس ، وعلى حساب كوارث وبلايا تصيب الأرض من اقترابه منها ، فعلى فرض أن هناك من العوامل ما يقرب القمر من الأرض ، وما يجعله على بعد ستين ألفاً من الأميال فقط ، فحينئذ يزيد المد والجزر ٦٤ مرة ، فتغمر الموانئ والمدن وما يجاورها ، وقد يلتقي من جراء ذلك البحران الأبيض والأحمر ، ولا ينجو من اليابسة إلا القليل كالجبال والربوات العالية . . . وليت الأمر يقف عند هذا الحد ، بل يتعداه إلى الملاحة ، فلا تعود تأمن سلوك البحار ودخول الموانئ<sup>(١)</sup> ! . . . »

أفصحيح هذا أيها القمر؟! . . أفصحيح أن لك أكبر الأثر في إحداث المد والجزر كل يوم ، وأنتك لذلك تتحكم في ماء البحار ، ومن جهة أخرى تتحكم في الملاحة والتجارة وما يتصل بهما من شئون؟ . . أفصحيح أن فيك آلافاً من الأودية والجبال والأنهار والسهول ،

(١) كتاب « الكون العجيب » لطوقان .

وأنت لست كما نظن مرآة نقية صافية صيغت من النور وللنور، بل  
فيك كآف وفتوء وهضاب وتلاع وفجوات؟! . . .

أفصحيح - كما يقول العلماء - أنك ختال خداع، تبدو لنا  
بوجهك فنظنك جميلا كل الجمال، رقيقاً كل الرقة، صافياً كل الصفاء،  
نقياً كل النقاء، ولكنك تخفي وراء ذلك ما يفزع ويهول، فأنت  
خال من الهواء، ونهارك محرق، وليلك بارد ولاذع، وأشعتك  
ليست من ذاتك، بل هي مستعارة من الشمس القوية الجبارة، فأشعتك  
إذن أكذب من سواد الخضاب في الة البيضاء؛ وفيك البراكين  
الخيفة والوديان الموحشة والأراضى المقفرة؟! . . .

لشذماخذعتنا إذن أيها الكوكب العجيب والجرم الغريب . . . بل  
لشذماخذعتنا هذه الحياة عن نفسها . . . كلما حسبتها تبتدت وتجلت،  
وانتهكت أسرارها وانكشفت أخبارها، تعقدت وتلوت، وأظهرت  
لنا من عجائبها الجديد . . . « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ! .

\*\*\*

في الناس خداعون أيضا أيها القمر . . . في الناس طعام لثام،  
ينسبون إلى الإنسان ولو كان ثمَّ إنصاف لعدوا من أخط أنواع  
الحيوان . . . فيهم من يلبس مسوح الرهبان، ويظهر بمظهر الملاك،  
ويمطيك من لسانه وبيانه ما يشتهي ويطلب، ولكنه يخفي وراء ذلك

نفس الثعلب وأخلاق الذئب وطباع الوحش .

لقد لقينا من هؤلاء ما لقينا ، وابتلينا من غدرهم بما ابتلينا . . .  
لقد سقيناهم الود كئوساً مترعة تفيض بالإخلاص والوفاء ، وصابروناهم  
على ضعفهم ونقصهم ، وغالبنا شهواتهم وهفواتهم ، فما ازداد اللئيم  
إلا خداعاً ، ولا ازداد الوضيع إلا اتضاعاً ، ولو كانت البلية مقصورة  
على أناس لا تربطك بهم إلا أسباب الحياة العامة لكان الخطب وخفت  
الشكوى ، ولكنك تأسى ولا تنسى حينما تأتمنك أيامك على قوم منك  
ولك وبك ، فتخلص لهم ودك ، وتمد إليهم رفدك ، وتصطفهم عندك ،  
فلا يشكرون النعمة ، ولا يذكرون الصنيعة ، ولا يحفظون اليد ،  
ولا يقرون بإحسان ، بل يكفرون كفر الشيطان ، وإذا أنت تأثر  
غاضب ، تشور لكراحتك المجروحة ، وتغضب لصنيعك المضيع ؛ فتتمرد  
على المودة ؛ وتعصف بما بنته يد الوهم والظن الجميل من أحلام وآمال :

هو يتكم جهدى ، وزدت على الجهد  
فإن أمس فيكم زاهداً بعد رغبة  
لعمرى لقد أغضيت فيكم على التي  
تأنيتكم بقيا الصديق ، لتقصدا  
تعزوا بيأسى عن هواى ، فإنتى  
أبى القلب إلا نبوة عن جميعكم  
ولم أرفيكم من يقيم على العهد !  
فبعد اختبار كان فى وصلكم زهدى  
تجرعنى المكروه من غصص الحقد  
وتأبون إلا أن تجوروا عن القصد  
إذا انصرفت نفسى فهيهات من ردى  
كنبوتكم عنى ، فى السحق والبعد !

أرى الغدر ضداً للوفاء ، وإنتى  
إذا ختمتُ بالغيب عهدى فما لكم  
صلوا فافعلوا فعل المدل بوصله  
فكم من نذير كان لي قبل فيكم  
وها أنذا فيكم نذير لمن بعدى  
فوا أسفا من صبوة ضاع شكرها  
مضت سلفاً في غير أجر ولا حمد !!  
إن الأمر لكذلك ، ولا بد للكريم من غضبة ، ولا بد للحليم  
من ثورة ، وياذلة من لا يغضب ، ويا ضيعة من لا يثور !! . . .

\*\*\*

إنك لجليل أيها الليل ! ينسلخ منك النهار ، فإذا أنت تلف الكون  
بردائك الرهيب ، فتنتقل أصحاب القلوب من حال إلى أحوال ، وتذكرهم  
بسلطان الكبير المتعال ، فلو شاء هذا المسيطر الجبار القهار لجعل النهار  
باقياً لا يزول ولا يتغير ، فيمل البشر ويسأمون ، ولو شاء لجعل عليهم  
الليل سرمداً ، فضلوا في الظلمات ، وحرّموا من الملمات ، ولكنه  
بفضله ورحمته دأول بينهما ؛ فجعل لكل منهما موعداً ، فلا الليل  
سابق النهار ، ولا النهار يباغ على الليل ؛ بل لكل قدر مقدور ، وأجل  
معلوم : « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة  
من إله غير الله يأتكم بضياء ؟ أفلا تسمعون ؟ قل أرأيتم إن جعل الله  
عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتكم بليل تسكنون

فيه ؟ أفلا تبصرون ؟ ! . ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون .

إنك لنعم المذكر الواعظ أيها الليل ؛ ففبك تهتد الأجساد وتتيقظ الأكياد ، وفبك تنشط القلوب بعد أن يمس الأجسام اللغوب ، وفبك تسمو الأرواح على رغبات التراب وغرائز الحيوان ، فيحلو التدبر ويمتد سبيل التفكر ، ويصبح المرء أدنى إلى عالم الملائكة منه إلى عالم الأشباح ، ولذلك عرف لك كتاب الله الحكيم قدرك ، فجعلك محل العبادة ومهيئ الاستغفار ومحط الاعتبار ، ووقت القنوت والصلاة ، والتهجد والخشوع ، فقال : « إن ناشئة الليل هي أشد وطئاً وأقوم قِيلاً » . وقال مخاطباً سيد العابدين وخاتم النبيين : « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك » وقال : « ومن الليل فأسجد له وسبحه ليلاً طويلاً » . وقال : « والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً » . وقال : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعا » . وقال : « أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر ، إن قرآن الفجر كان مشهوداً » وذلك مما ينهض لك بالشهادة على أنك من أعظم الآلاء ! .

أيها الليل ! . . إنك لجليل ، وإنك لعظيم ، ولكنه لا يشعر بجلالك وعظمتك وسلطانك إلا أصحاب القلوب ! ! .

واستيقظت مع الصباح الباكر ، قبل أن تطلع الشمس ، فرأيت  
الكون كالإنسان يتنفس ، فكأنه قائم من نوم عميق ، فهو يسترد  
نشاطه ويستعيد قوته ، ويبدو متهيئاً لوثة أخرى من وثباته نحو الأمام .  
وخيل إلى أن الطبيعة بمجالها ومزارعها وربواتها وبيوتها وأشجارها  
تغتسل وتتطهر ، كأنما قد أمت أثناء الليل بما يستوجب هذا التطهير ،  
فتذكرت صباحاً كنت أشهد فيه القاهرة الوسيعة الفسيحة عقيب الفجر  
وقبيل نور الشمس ، فإذا بقطرات الندى والضباب والنسيم الرطب يشمل  
كل نواحيها ، ويغمر كل شيء فيها ، فكأنها تتطهر متوثبة أو متأثمة ؛  
وكأنها استحضرت ما كان فيها تحت ظلام ليلها الذاهب من مخازير  
وفضائح ومقايح ، ومناكر ومآثم ، فاستعظمت ذلك فاستعانت بهذا  
الظهور الطبيعي الغامر ، فألقت بهيكلها بين أمواجه لتخرج منه نقية  
صافية !! . . .

لقد خيل إلى ساعتئذ أنه تطهير حسي ومعنوي ، كتطهير الإنسان  
لحسه ونفسه سواء بسواء ؛ وكان الطبيعة بهذا الاغتسال تذكر الإنسان  
بأن يطهر ذاته وروحه كلما احتاجا إلى تطهير . .

وتذكرت أياماً كنت أخرج فيها إلى الحقول قبيل الشروق ، فأشهد  
قطرات الندى فوق أوراق البرسيم والذرة والقطن ، فأخذ هذه القطرات  
بيديّ وأمسح بهما وجهي ، كما كان يفعل الرافي رضوان الله عليه ،

فأجد لذلك برداً وسلاماً ، ولذة وانتعاشاً ، وبهجة وانسراحاً ، فأصدقه  
حين قال إن ذلك يجلب صفاء النفس وضياء الوجه وصحة البدن ! ..  
ياعجباً كل العجب ! ... حتى النباتات البريئة الوادعة تتطهر  
كل صباح ! .. فمن يدرى ... قد يكون لمسها نجس أو قبلها ملوث  
أو أكل من ثمرتها موبوء ، أو شهدت مالا يصح أن تراه ، فهي تجعل  
هذا التطهير اليومي تكفيراً عن ذلك التفريط !! ..  
تطهر أيها الإنسان حسياً ومعنوياً .. فكل شيء في الكون  
يتطهر !! ..

وبزغت الشمس قوية فتية وضاحية ، فوقفت أرقبها وأعجب  
بمنظرها ، وأتملى من سحرها ؛ وكما راعنى غروبها راعنى إشراقها ؛  
ولم لا وتلك آية الله فى الكون ، وكل ما أبدعته يد الخلاق العظيم  
فهو جميل ! ..

(٨)

## حديث عن الغناء

وحاذينا معنى من المغاني التي يأوي إليها أهل النعمة والثراء من المصيفين في رأس البر، فأشار أحد صاحبي وقال: هنا تعيش كوكب الشرق الأنسة أم كلثوم! . فقال له الثاني: صه، واخفض من صوتك حتى لا نسمعنا:

فأذن المغني تحمس النسـ

يم، وتسمع في الكأس جرس الحبب! فتحمس صاحبي، وكان نشوة من الطرب سرت في طواياه فكانت حمياه، فهتف: دعني يا صاحبي أتحدث، سمعنا أم لم تسمع، فما نحمل لها إلا كل إعجاب. هنا تنزل الشادية الساحرة الماهرة الباهرة؛ هنا تعيش أم كلثوم المغنية المؤدبة الرقيقة، اللطيفة المعشر، البارعة النكتة الخفيفة الدعابة، الأدبية التي تحفظ الكثير من القرآن الحكيم، والتي قرأت أغاني أبي الفرج، والتي تجيد الحوار، وتحسن المازحة مع احتفاظ بالأدب وحسن السمعة، والتي تفهم ما تقول، وتتأثر بما تردد، وتغمر في جو ما تنشد، والتي تعز بفتها وتأسر بمواهبها لا بمظهرها، والتي



لا تنكر لماضيها وتعترف بأنها كانت فقيرة ، وأنها فلاحه من صميم  
الشعب . . هنا أم كلثوم التي يقول لها الزهاوى :  
يا أم كلثوم إنا أمة رزحت تحت المصائب أحقبا فسلينا  
هنا أم كلثوم التي سحرتنا وأسرتنا بصوتها الشجي ، ونبراتهما  
الواضحة ، وإنشادها المبين ، والتي استنهضت العزائم وأحيت القلوب  
بما رددت من كريم الأغاني ونبيل الأناشيد .  
هنا التي رددت « سلوا قلبي » و « يا شباب النيل » و « فرحة  
الشرق » و « بغداد » و « أراك عصي الدمع » ، وغيرها وغيرها من  
خوالد القطع .

قال الأول : أراك جد مفتون بفن أم كلثوم ! . فقال الثاني : ومن  
ذا الذي لا يفتن بهذا الصوت الجميل الرائع ، المطواع الباهر ؟ . أو تريد  
يا سيدي أن تتخذ موقفك معارضا للغناء ؟ . أو لست ممن يظربون ؟ .  
أتنكر على اللحن مكانه وسلطانه ؟ .

قال الأول وله ثقافته العربية : كلا ، فما ينكر أثر هذه الألحان  
إلا مغلق القلب أو منكر الواقع ، ورحم الله ابن عبد ربه حين يصف  
الغناء في عقده بأنه « مراد السمع ، ومرتع النفس ، وربيع القلب ،  
ومجال الهوى ، ومسلاة الكئيب ، وأنس الوحيد ، وزاد الراكب ؛ لعظم  
موقع الصوت الحسن من القلب ، وأخذه بمجامع النفس » . ولقد رووا

أن الأطباء قالوا : « إن الصوت الحسن يسرى في الجسم فيصفو له  
الدم ، ويرتاح القلب ، وتهتز الجوارح ، وتتحف الحركات » .  
وقديماً كان الفحول من الآباء والأجداد يطربون للصوت الجميل ،  
ويحسون له في نفوسهم هزة وأريحية ، وكم من نغمات مشجيات انبعثت  
من لهة عبقرية ولسان صناع وفم عذب النبرات ، فأحيت موات جبان ،  
وبسطت يد شجيح ، وفرجت كرب مكروب ، وجلبت المسرة لحزين  
أسيف ! ..

حتى الذين تزمتموا وتحنثوا كان لا يعدمون من الشواهد والسوابق  
ما يبيح لهم أن ينصتوا إلى كلمات ترددها الشفاه المشجيات ، مادام لهذه  
الكلمات عفافها وكريم غايتها . فهم يروون مثلاً أن نبي الإسلام عليه  
الصلاة والسلام كان يعجبه صوت بلال في الأذان ، ولما سمع صوت  
أبي موسى الأشعري أثنى عليه ، وقال له : « لقد أوتيت مزماراً من  
مزامير آل داود » .

ودخل الشعبي الواعظ الزاهد المتبتل على بشر بن مروان وإلى  
العراق ؛ وعنده جارية ؛ فغنت بقول الشاعر :

ومما شجاني أنها يوم ودعت تولت وماء العين في الجفن حائر  
فلما أعادت من بعيد بنظرة إلى التفاتاً أسلمته المحاجر  
فجعل الشعبي يرشدها إلى طرق الأداء ؛ ويفاضل بين أساليب  
الغناء ؛ دون أن ينكر عليها ما هي فيه ! ..

وقدم تاجر عراقي يتجر في ملابس النساء بمُخْمَرٍ ليبيعهما في المدينة ؛  
فكسدت السود منها ، فشكا ذلك إلى الدارمي ، وكان قد ترك الشعر  
وتنسك ولزم المسجد ، فترك الدارمي ثياب نسكه ، وتظاهر بحاله الأولى ،  
وقال أبيتاً أمر أحد المغنين بغنائها ، وهي :

قل للمليحة في الخمار الأسود      ماذا فعلت براهب متعبد ؟  
قد كان شمر للصلاة ثيابه      حتى خطرت له بيباب المسجد  
ردى عليه صلاته وصيامه      لا تقتليه بحق دين محمد !

فانتشر هذا الغناء في المدينة ، وقال الناس : لقد رجع الدارمي  
وعشق صاحبة الخمار الأسود . فلم تبق مليحة في المدينة إلا ذهبت إلى  
التاجر العراقي واشترت من الخمر السود خماراً ؛ حتى باع التاجر جميع  
ما كان معه ؛ وجعل إخوان الدارمي النساك يسائلونه أثناء ذلك : ماذا  
صنعت ؟ . فيقول : ستعلمون نبأه بعد حين . فلما نفذت بضاعة العراقي  
رجع الدارمي إلى نسكه وعبادته ؛ بعد أن أدى عن طريق الغناء هذا  
المعروف . . . ! !

ومر عبد الله القس شبيهه عطاء بن رباح في العبادة والتقوى على  
سلامة المغنية وهي تغني ، فوقف يسمع غناها معجباً به ، فرآه سيدها ،  
فقال له : هل لك أن تدخل فتسمع ؟ . فأبى ، فلم يزل به حتى دخل ،  
فقال : أوقفك في موضع بحيث تراها ولا تراك ! ! . وأخذت سلامة

تغنى وعبد الله يسمع معجباً مطرباً ، ثم أحست سلامة بملاحظته لها فغنت :

رُبَّ رَسُولَيْنِ لَنَا بَلَّغَا      رسالة من قبل أن يبرحا  
لم يُعْمَلَا خِفاً ولا حَافِراً      ولا لساناً بالهوى مَفْصِحَا  
حتى اسْتَقْلَا بِجَوَائِبِهِمَا      بالطائر الميمون قد أنجحا  
الطرف والطرف بعثناهما      قضية حاجاً ، وما صرحا !  
فأنغى عليه وكاد يهلك ! . . وتوثقت أسباب المودة بينهما بعد ذلك ، وذات يوم قالت له : يا عبد الله ، إني أحبك . فقال لها : وأنا والله أحبك ! . قالت : وأحب أن أضع فمي على فمك ؛ فقال : وأنا والله أحب ذلك . قالت : وما يمنحك من ذلك ولا رقيب هناك ؟ قال : أخشى أن تكون صداقة ما بيني وبينك عداوة يوم القيامة ، أما سمعت الله تعالى يقول : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » ؟ . ثم تركها ومضى ، بعد أن أوقد جوانحه بلظى هذا الغناء الجذاب الذي تتراعى إليه أسماع الفحول كما يتراعى الفراش على لهب النار ! ! .

وكان معاوية يعيب على عبد الله بن جعفر سماعه للغناء ، وذات ليلة مر معاوية ببית عبد الله فسمع فيه غناء ، ف جذبته إليه ، فوقف يسمع ساعة ثم انتبه فمضى وهو يقول : أستغفر الله ! أستغفر الله ! . ثم مر معاوية مرة أخرى فسمع عبد الله يصلي في جوف الليل ، فوقف يسمع

قراءته ، ثم قال : الحمد لله ، خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، عسى الله أن يتوب عليهم . فبلغ ذلك عبد الله بن جعفر ، فدعا معاوية إلى طعام في منزله ، وأحضر ابن صياد المغنى المشهور ، وقال له : إذا رأيت معاوية واضعاً يده في الطعام فحرّك أوتارك وغنّ . . . فلما وضع معاوية يده في الطعام غنى ابن صياد :

يا ليدنى أوقدى النارا      إن من تهوين قد حارا  
رب نار بت أرمقها      تقضم المندى والغارا  
ولها ظبي يؤججها      عاقد في الخصر زنارا

فأعجب معاوية بالغناء إعجاباً شديداً ، ورفع يده من الطعام ، وجعل يضرب الأرض برجله طرباً ؛ فقال له عبد الله : يا أمير المؤمنين ! إنما هو مختار الشعر يركب عليه مختار الألحان ، فهل ترى به بأساً ؟ فقال معاوية : لا بأس بحكمة الشعر مع حكمة الألحان !! .

وهكذا انتزع ابن جعفر هذه الشهادة القيمة من معاوية الذي كان يعيب عليه سماع الغناء حتى عرف لذته ونشوته ، فأقرّ له ..  
وسمع معاوية أيضاً غناء عبد الله ليلية فطرب له طرباً شديداً وقال :  
والله إنى لأسمع شيئاً تكاد الجبال تحرّ له وما أظنه إلا من تلقية الجن ! .  
ولما رأى معاوية أن عبد الله يجمع بين الغناء أول الليل ، والقراءة والصلاة آخره ، قال لزوجته فاختة : هؤلاء قومي ، ملوك بالنهار ، ورهبان بالليل ! .

وزار معاوية عبد الله ليلة فسأله عن مكان شخص غائب ، فقال  
عبد الله له : هذا مجلس رجل يداوى الآذان يا أمير المؤمنين ؛ ففهم  
معاوية ما يقصد وقال : فإن أذنى عليلة ، فمره فليرجع إلى موضعه ! . . .  
فعاد المغنى وغنى ، فحرك عبد الله رأسه ، فقال له معاوية : لم حركت  
رأسك يا ابن جعفر ؟ . قال أريحية أجدها يا أمير المؤمنين ، لولا قيت  
عنها لأبليت ، ولئن سئلت لأعطيت ! .

ولما تفنن المغنى فى الغناء طرب له معاوية أيضا فحرك رجله ، فقال له  
ابن جعفر : يا أمير المؤمنين ، سألتنى عن تحريك رأسى فأخبرتكم ، وأنا  
أسألك عن تحريك رجلك ! . فقال معاوية : كل كريم طروب . ثم  
قام وبعث بالهدايا السنوية إلى ابن جعفر وجلسائه .

واجتمع الناس ذات يوم بالعقيق ، وفيهم ابن عائشة المغنى ، وكان  
يُدل بغنائه ، وجاء الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب وأمامه خادمان  
كأنهما ساريتان ، وكلفهما بأن يهجمتا على ابن عائشة فى غفلة منه ،  
ويأخذا بضبعيه ، ولا يتحركا حتى يفعل ما يريد ؛ وإلا قتلها ، ففعلا  
ما أمر به ، ففرع ابن عائشة وقال : من فعل هذا ؟ فقال الحسن : أنا  
يا ابن عائشة . قال : لبيك وسعديك ، وبأبى أنت وأمى . ثم أخبره  
الحسن بما عقد عليه العزم قائلًا : لن يترك الخادمان ضبعيك إلا إذا  
غنيت للناس مائة صوت . وبعد محاوره ومداورة أطاع ابن عائشة فجعل

يعنى حتى ثمل الناس وطربوا ، فكبروا تكبيرة واحدة ارتجت لها  
أرجاء المدينة . وقال الناس للحسن : صلى الله على روحك حياً وميتاً ،  
فما اجتمع لأهل المدينة سرور قط إلا بكم أهل البيت ! .

ومر عمر الوادى على عبد أسود يعنى فأعجبه غناه فجاءه وقال له :  
أعد ما سمعت . فقال العبد : والله لو كان عندى قرى أقرئك به ما فعلت  
ولكنى أجعله قراك ؛ فإنى والله ربما غنيت بهذا الصوت وأنا جائع  
فأشبع ، وربما غنيت وأنا كسلان فأنشط ، وربما غنيت وأنا عطشان  
فأروى ؛ ثم ابتدأ فعنى :

وكنت إذا ما زرت سعدى بأرضها أرى الأرض تطوى لى ويدنو بعيدها  
من الخفرات البيض ودّ جليسها إذا ما انقضت أحدى لوتعيدها !  
قال عمر : حفظته منه ثم تغنيت به على الحالات التى وصف ، فإذا  
هو كما ذكره ! .

\*\*\*

امتلاً صاحبنا فرحاً وسروراً بهذه الشواهد ، وكأنه قد وجد فيها  
ضالة عزيزة عليه ظل ينشدها طويلاً ، ثم وجدها فجأة على غير  
انتظار ، فقال :

ذا كرنى يا صديق هذه النقول ، وزدنى منها ؛ حتى تكون سلاحاً  
لى ألقى به قوماً تزمتموا أو تحجروا فناهضوا الغناء فى مغالة وإسراف ،  
دون تفرقة منهم بين ما يحمد منه وما يعاب ! .

وأردت أن نحدد الموضوع تحديدا علميا ونفسيا ودينيا ، حتى نتبين فيه وجهة الحق وقولة الصدق فلا نسرف ولا نتعسف ، ولذلك ابتسمت قائلاً : أولا تريدون أن تسمعوا قولة من « رجل الدين » في الموضوع ؟ .. فعلا ضحكهما وقالوا : دعنا من « رجل الدين » الآن ! .

\*\*\*

وفي المكان الرحب ، والضوء الساطع ، والجو الضاحي ، والهواء الصافي ، والأفق المشرق ، والشاطئ الطاهر ، شاهدت فتى يدخن ! ..  
يا للمضايقة ! .

لكأن القدر أراد أن يختبرني بهذا الابتلاء ، أو لكانه أراد أن يمزج أمامي الخير والشر ، لأتعرف مقدار ما بينهما من فرق واختلاف !  
إنني بطبيعتي وخبرتي أكره التدخين وأجاهده ، ولكني أحياناً أحتمله على الرغم مني في أمكنة غير هذا المكان ، أما هنا فليس إلى الاحتمال سبيل .

إن التدخين في ذاته مضر من ناحية الصحة والمال والخلق والعادة وهو أمر معكر للصفو في هذا المكان الذي خلص — أو يجب أن يخلص — للهواء والصفاء والنقاء ، والمتعة والهناء ؛ وهو أمر مشين ومعيب إذا صدر من فتى شاب ، لا يزال حدثاً ، ولا يزال جسمه غضاً بضا ، ولا تزال عشيرته تأمل الاعتماد عليه عند النوازل والحوازل .



وهو خيانة حينما يدخن المرء لفافة أجنبية ، تفعل فعل السم في المواطنين ،  
ثم تبتز أموالهم لتعمر بها جيوب الوارثين من المحتملين ؛ ولقد كان هذا  
الشاب يدخن لفافة أجنبية . . . والتدخين أخيراً سفه وإفشاء إلى  
تهلكة إذا لم تراع فيه الاعتدال وحسن الاختيار ، ولقد كان  
هذا الشاب مع الأسف يدخن لفافة كثيفة سوداء من ذلك النوع  
العنيف السخيف ! .

متى ينطلق الشرق الذليل المسكين من أسر هذه العادات ، وأسر  
تلك المهلكات ؟ . متى أيها الشرق ؟ ! .

(٩)

## من القرآن

وأغلب ما يسامر خيال المرء على الشاطئ حديث البحر والماء والهواء ، وقد مر بخاطري وأنا في سبحة من سبحات هذه المسامرة موقف القرآن الكريم من هذه الأمور الثلاثة : البحر والماء والهواء .. والقرآن المجيد كتاب العربية الأعلى ، وينبوع البيان الأسمى ، وحجة الأديب التي لا تخون ، وضوءه الذي لا يخبو ، وفي إيجازه سر من أسرار إعجازه ، وفي رموزه وإشاراتة ، من البلاغة والشفاء ، ما في تصريحه وعباراته ؛ ومن اللفظة القرآنية الوحيدة يستطيع ذو اللب والقلب أن يفهم الكثير ، وأن يستنبط الغزير ...

ولقد راعنى وأمتعننى أن رأيت كتاب الله العلى الأعلى يُضفى على الطبيعة ، وهى صنعة الخالق القدير ، من الجلال والجمال ، ما يستثير الأبواب ويسحر العقول ، وهو فى كل مناسبة يحرّض أقوى التحريض على التطلع إلى مجالى الطبيعة ومشاهد الكون وأرجاء الحياة ، ويدعو إلى الأخذ من هذه الطبيعة والتمتع بها والاعتماد على دلائلها فى الاهتداء إلى خالقها سبحانه ... وكأنه يريد أن يقول لأهليه : إنه ليس بعبد صحيح

من لم يكن قوياً في جسمه وفهمه وهضمه لمعاني الحياة ، وتقبله لمطالع  
جمالها وروعيتها ، فيعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً ، وفي الوقت نفسه يعمل  
لآخرته كأنه يموت غداً ، وليس ثمة من خلاف بين السعيين ، ولا من  
تناقض بين المنهجين ، بل إن شئت الحق كاملاً فقل إن الدنيا والآخرة  
شيء واحد ، ما دام المرء يحيا وسطاً بين الإفراط والتفريط ، فالدين يشمل  
جميع مظاهر الحياة الطيبة الصالحة ، والدنيا العامرة بالقوة والخير والجمال  
هي تطبيق لهذا الدين الكريم الذي يريد لأهليه اليسر ولا يريد بهم  
العسر . . .

ولقد رأيت القرآن الكريم فيما يتعلق بالشاطيء يكثر من ذكر  
البحر والماء والرياح ويقصد بها الهواء ، والحديث يكثر عادة عن الشيء  
صاحب الشأن والخطر ، وليس من منهاج هذه الصلوات الفكرية أن  
تميل إلى تفصيل بحث في موضوع يستحق الإفراد والتفرغ ، فحسبي أن  
أسوق إليك طائفة من الآيات الكريمة ، لتطيل الوقوف أمامها والتفكير  
فيها ، وإن وجدت فيك الرغبة إلى البحث فارجع إلى معاني هذه الآيات  
في التفاسير المختلفة ، واستنبط منها الأسرار والإشارات ، فإنك واجد عجباً  
من عناية الباري المصور بلفت الأبصار والبصائر إلى الطبيعة وما فيها :

## البحر

(١) «... والفلک التي تجرى في البحر بما ينفع الناس»<sup>(١)</sup> —

البقرة ١٦٤

(٢) «أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة» —

المائدة ٩٦

(٣) «وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر

والبحر» — الأنعام ٥٩

(٤) «هو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات

البر والبحر» — الأنعام ٩٧

(٥) «وهو الذي يسيركم في البر والبحر» — يونس ٢٢

(٦) «وسخر لكم الفلك لتجری في البحر بأمره وسخر لكم

الأنهار» — إبراهيم ٣٢

(٧) «وهو الذي سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً»

— النحل ١٤

(٨) «ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من

فضله» — الإسراء ٦٦

---

(١) وضعنا في آخر كل آية اسم السورة ورقم الآية فيها.

(٩) « وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه »  
— الإسراء ٦٧ —

(١٠) « ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر » — الإسراء ٧٠

(١١) « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن

تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً » — الكهف ١٠٩

(١٢) « ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في

البحر بأمره » — الحج ٦٥

(١٣) « أمّن يهديكم في ظلمات البر والبحر » — النمل ٦٣

(١٤) « ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام » — الشورى ٣٢

(١٥) « وله الجوار المنشئات في البحر كالأعلام » — الرحمن ٢٤

(١٦) « وما يستوى البحرين هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا

ملح أجاج » — فاطر ١٢

(١٧) « وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح

أجاج » — الفرقان ٥٣

(١٨) « وجعل بين البحرين حاجزاً » — النمل ٦١

(١٩) « مرج البحرين يلتقيان ؛ بينهما برزخ لا يبغيان » —

الرحمن ١٩ و ٢٠

(٢٠) « وإذا البحار سجرت » — التكويد ٦

(٢١) « وإذا البحار فجرت » — الانفطار ٣

## الماء

(١) « وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم »

— البقرة ٢٢

(٢) « وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد

موتها » — البقرة ١٦٤

(٣) « وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل

شيء » — الأنعام ٩٩

(٤) « وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به » — الأنفال ١١

(٥) « ونخيل صنوان وغير صنوان يسقي بماء واحد... » — الرعد ٤

(٦) « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها » — الرعد ١٧

(٧) « وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه

وما أنتم له بخازنين » — الحجر ٢٢

(٨) « وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى »

— طه ٥٣

(٩) « وجعلنا من الماء كل شيء حي » — الأنبياء ٣٠

(١٠) « وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت »

— الحج ٥

(١١) « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة »

— الحج ٦٣

(١٢) « وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكنناه في الأرض »

— المؤمنون ١٨

(١٣) « وأنزلنا من السماء ماء طهورا » — الفرقان ٤٨

(١٤) « وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً »

— الفرقان ٥٤

(١٥) « أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به

زرعاً... » — السجدة ٢٧

(١٦) « ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد »

— ق ٩

(١٧) « أفرايتم الماء الذي تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن أم

نحن المنزلون » — الواقعة ٦٨ و ٦٩

(١٨) « قل أرايتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين »

— الملك ٣٠

(١٩) « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً »

— الجن ١٦

(٢٠) « وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناهم ماء فراتاً »

— المرسلات ٢٧

(٢١) « وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً » — النبأ ١٤

- (٢٢) « أخرج منها ماءها ومرعاها » — الفازعات ٣١  
(٢٣) « فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صبا » —

عبس ٢٤ و ٢٥

## الرياح

- (١) « ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر » —  
سبا ١٢

- (٢) « فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب » —  
سورة ص ٣٦

- (٣) « إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره »  
— الشورى ٣٣

- (٤) « وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض  
لآيات لقوم يعقلون » — البقرة ١٦٤

- (٥) « وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته » —  
الأعراف ٥٧

- (٦) « وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماءً مباركاً  
فأسقيناكموه وما أنتم له بحازنين » — الحجر ٢٢

- (٧) « وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته »  
الفرقان ٤٨



(٨) « ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من

من رحمته » — الروم ٤٦

(٩) « الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء »

— الروم ٤٨ .

(١٠) « واختلاف الليل والنهار وما أنزل من السماء من رزق

فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آياتٌ لقوم يعقلون »

— الجاثية ٥

\*\*\*

وليس هذا كل ما جاء في كتاب العربية الأقدس ، وما كان من  
وَكَدْنَا أَنْ نَحْصِيَ أَوْ نَسْتَقْصِيَ ، ولكنها رغبة منا في وضع الأعلام على  
الطريق والقادر على السير يستطيع أن يبلغ الغاية . والمهم أن نضع بين  
يدى الباحث المطلعة مواد البناء ، واليد الصنّاع تقولى التشييد ،  
فأقبل على حديث البحر والماء والهواء في القرآن ، فستجد آفاقاً من  
البحث تصل بك إلى الكثير . . .

## استغلال الكاتين

وأصبحت ذات يوم في رأس البر ، وأنا مخمور من هذه النشوة  
الإلهية ، مسحور من هذه الفتنة الربانية ، أشعر بالعواطف تتدافع  
في نفسي ، والأحاسيس تتجمع في مشاعري ، والخواطر تعج في خاطري  
كأنها كوكبة من النحل تطن وترن وتريد الانطلاق ، واستقبلت  
نهاراً مشرقاً وضاحاً ، كان كما يقول العقاد : « نهاراً بساماً مدلاً بشمسه  
مزهواً بنوره ، كأنما يحس روعته في الأنظار ، وبهجته في الأرواح ،  
وأنما يتوهج من نظر العيون إليه ، كما تتوهج الوجنة الصبوح تحت  
لمحات الأحداق ، كان نهاراً مبتكراً عليه جدة لا تحسبها قد مضت  
عليها سويعة من يوم ... خلقا مبتكراً يخيل إليك أنه يتلأل في فضائه  
الأول للمرة الأولى » . . . وكل نهار على الشاطئ ، وأمام البحر ،  
كهذا النهار ؛ فالأيام هنا في جلالها وجمالها ، وبهاؤها وروائها ، كالحلقة  
المفرغة لا يدري أين طرفها ، أو كالفرائد تساوت في الصفاء والنقاء ،  
وخلت من الزيف والكلف ، فلا تستطيع إحداها أن تقول للأخرى :  
أنا خير منك ! .

وحدثتني نفسي أن أتناول يراعتي وصحيفتي ؛ لأصوّر هذه الخواطر  
وتلك المناظر بريشة الأديب ، أو لغة الفنان على صفحة القرطاس ،  
وأقدمت على ذلك فعلاً ، وكتبت ما كتبت ، وهممت أن أبعث به إلى  
مجلة كانت لي بها صلة ، لتشره على الناس ، ولكنني أحجمت ،  
وكان الخير في هذا الإحجام ! . . . فقد تذكرت طول ما بليت به من  
هؤلاء الأفاقين المحتالين الذين يمتصون دماء الأدباء الشباب ، ويسرقون  
نور أبصارهم ، ويستنفدون أضواء قلوبهم ، فيستغلونهم أسوأ الاستغلال  
ويتخذونهم وسيلة لكسب المال وبناء الدور وتشيد القصور وامتلاك  
العقار وإذاعة الصيت . ويتلفت ذلك الأديب الذي أسال نفسه قطرات  
في كلمات ، وسكب دمه دفعة بعد دفعة على صفحات هذه الصحف  
والمجلات ، يتلفت يميناً وشمالاً لينظر ماذا كسب أو استفاد ، فلا يجد  
إلا الشقاء والفناء ، فقد افتقر واغتنى صاحب المجلة ، وضاع بصر الأديب  
وهزل جسمه ، بينما اكتظ صاحب المجلة وانتفخ جيبه . وإذا حاول ذلك  
الجندي الجهول أن يثور لنفسه أو يطالب بحقه ، أو ينتصف لكرامته ،  
امتنّ عليه صاحب المجلة — إن حقاً وإن باطلاً — بأن مجلته هي التي  
شهرته وأذاعت اسمه ، ورفعت ذكره ، وأعزت مكانته ، وجعلته من  
« كبار الأدباء » ! . ويذهب الأديب المسكين باحثاً عن مصرف من مصارف  
المال أو شركة من شركات الاقتصاد تستطيع أن تحول له هذه الكلمة :

« من كبار الأدباء » إلى قرش يأكل به ، أو جلباب يرتديه ، فلا يرجع بطائل ، ولا يفوز بعاجل أو آجل ! .

ومن أخبت ما يتذرع به أولئك التجار الجشعون لاستغلال الهواة من الأدباء والناشئين من الكتّاب و « الطيبين » من المحررين أنهم يتسترون في جرائدهم ومجلاتهم وراء دعوات الإصلاح أو الجهاد أو الدعوة إلى سبيل الله ، ثم يتدثروا واحد منهم بلباس الغيور على الدين ، الباكي لضياع الأخلاق ، الثائر من أجل الفضائل ، ويحفظ من عبارات الملق والمرآة والمديح والثناء بضعة عشرات ، ثم يتجه إلى ذلك الأديب المسكين ، فيحني فيه غريزة حب المديح والثناء والاعتزاز بشخصه ، والعجب بذاته ، ثم يرجوه ذلك التاجر الصحفي الجشع أن يؤدى ضريبة الفن أو العلم أو الدين عليه ، بكتابة سلسلة من المقالات يشارك بها في الدفاع عن المبدأ السامي الذي وقفت تلك المجلة جهودها كلها عليه ، لاتبغى من وراء ذلك — كما يدعى صاحبها الأفاق — جزاء ولا عرضاً من أعراض الدنيا ! . . .

وهنا ينخدع الأديب المسكين ، أو العالم « الطيب » ، ويظن أنها ثورة مجاهد ، أو سعى مؤمن ورع ، فيبدأ بالكتابة ويواليها بلا أجر أدبي أو مالي ويظل شهوراً أو سنوات ، وهو يشاهد — أو يشاهد غيره — أن صاحب المجلة يزداد مالا وعقاراً وجاهاً ، بل وذيوع اسم على حساب ذلك الأديب المسكين وأمثاله الذين ينخدعون بمثل هذه الخبيثة ! . . .

وإني لأعرف — شخصياً — كثيراً من كرام الشعراء ونابغى  
الأدباء وصفوة العلماء ، خُدِعوا بهذه الأساليب ، فكتبوا ما كتبوا ،  
ودبجوا ما دبجوا ، وأسهموا بما أسهموا ، واغتنى من سخرهم وبقوا هم  
فقراء ، وامتلاً من استغلهم وظلواهم ضعفاء ؛ ولقد يمرض أحدهم فلا يعود  
من اغتنى بسببه ، وقد يموت أحدهم فيبخل عليه ذلك التاجر الجشع  
بتشييع جنازته ، أو بأن يقول فيه كلمة الرثاء !! ..

لقد آن لكم أيها الأدباء الغافلون ، والعلماء « الطيبون » ،  
والكتاب المتفضلون ، أن تعرفوا مكانتكم ، وأن تشوروا لعزتكم ، وأن  
تطالبوا بحقكم ، وأن تسموا عن أن يضحك أمثال هؤلاء على أذقانكم ؛  
فوالله إن البعض منهم يلقي الواحد منكم مرحباً مكرماً ، مردداً عبارات  
المديح والثناء ، حتى يفوز منه بكتابة مقال أو تصحيح أصل في كتاب ،  
أو مراجعة تجارب في مطبعة ، فإذا أتم الواحد منكم ذلك وانصرف  
انقلب عليه ذلك اللئيم الخسيس ، والثعبان الخبيث ، حرباً شعواء ،  
فيسلته بلسان حديد ، ويطعنه بقم عرييد ، ويقول فيه ما قال مالك  
في الحجر !! ..

\*\*\*

لست أدعوكم بهذا الكتاب إلى أن تكتبوا عواطفكم ، أو تقاعسوا  
عن الدفاع عن حرمانكم ومبادئكم وعقائدكم وأوطانكم ، فتلك ضريبة  
مفروضة عليكم وعلى سواكم من كل مستطيع ؛ ولكني أحدثكم عن

مواطن تُستغلون فيها أسوأ استغلال ، وتسخرّون فيها أحط تسخير ،  
دون علم منكم أو شعور ، أو بعلم منكم وشعور ! ..

لا أحجر عليكم أن تتطوعوا بأقلامكم وأموالكم وألسنتكم حينما  
تجدون الميدان خالصاً للمبدأ ، والصحيفة مخصصة لله ، والجهود موقوفة  
على الوطن ؛ أما أن تكون النية موجهة إلى جمع الأموال ، وكنز الذهب  
والفضة ، فلا تنخدعوا بها حين تعرض عليكم في زائف الأقوال !! ..  
هذا كلام له خبيء ، فليت شعري .. أفيسمعه من قصدتهم به ،  
ويستجيبون له ، أم أن كلاً منهم سيتغافل ويتجاهل ، ويقول حين يقرأ هذا  
الكلام أو يقرأ عليه : إن المقصود بهذا الكلام غيري من الأدباء والكتاب ! ..  
لو كنت أملك التصريح والتوضيح أكثر من هذا لفعلت ،  
فلا تكونوا كالنعامة تخفي رأسها بين ساقها حين ترى الصياد ، ظانة  
أنه لن يراها مادامت هي لا تراه ، فإنوا والله نعرفكم بأشخاصكم وأسمائكم  
ومراحل حياتكم يا هؤلاء ! ..

\*\*\*

لا لا يا هذا ، احبس عليك ما كتبت ، ولا تنثر درك أمام جهال ،  
وانتظر به قليلاً ، لعل الأيام تهيب لك أن تعرض هذه الصور التي  
رسمت بها ألواناً من الأدب على قوم يعزونها أو يحبونها ، فيعرفون لها  
قيمتها ، ويحتفلون بمقدمها ، سواء أقصر الانتظار أم طال !! ..

## إلى الملتقى

وأخيراً ، لقد حانت على الرغم منا ساعة الفراق ، لقد جاءت اللحظة  
التي كنا نود أن لا تجيء . . . لقد أزف الموعد الذي توجب ظروف  
حياتنا فيه أن نعود إلى المجتمع الصاحب اللاغب ، لنحمل من جديد  
أعباء همومنا ومطامحنا ، وشهواتنا ومطالبنا . ولنغمر بين جمهرة هذا  
الموكب البشرى الهائل الذي يزحف في عجيج مخيف وضجيج مفرع نحو  
غاية محدودة أو مبهمه ، ولكنها على كل حال ليست بخالصة من  
الشوائب والأخلاق ، إن لم تكن كلها هي تلك الشوائب والأخلاق ! .  
وإذن فلنلق النظرة الأخيرة على السماء الصافية ، والأفق الصافي ،  
والجو الباهي ، والشمس الساطعة ، والرمل المنبسط ، والمغاني الهادئة ،  
والملاعب الضاحكة ، والبحر الهائل ، الذي لا يرى له آخر . . .  
وداعاً أيها الشاطيء . . . ووداعاً أيها البحر بما فيك من محاسن  
ومفاتيح ؛ وداعاً إلى يوم نلتقي ، ولست أدري بالتحديد متى نلتقي ،  
ولكني مؤمن بأننا سنلتقي ، فلن يستطاع إلى نسيانك سبيل ! . . .  
إلى الملتقى يا رأس البر . . . يا حياة للقلوب ، وقوة للأجساد ،  
ومتعة للأبصار ! . . .

## الفهرس

رقم الصفحة	الموضوع
١١	تمهيد...
١٤	بين الأمس واليوم ...
٢٤	في الطريق ...
٣٧	هذه رأس البر ...
٥٣	أشواق حول الورود ...
٦٣	لماذا خلق الله البحر ...
٧٤	لواذع الحرمان ...
٨٥	الليل على الشاطيء ...
١٠٠	حديث عن الغناء ...
١١٠	من القرآن ..
١١٨	استغلال الكاتبين ...
١٢٣	إلى الملتقى ...



## كتب للمؤلف

- (١) حركة الكشف . . . . . صدر عام ١٩٣٦ م
- (٢) محاولة . . . . . م ١٩٣٧
- (٣) بين صديقين . . . . . م ١٩٣٩
- (٤) نفحات من سيرة السيدة زينب . . . . . م ١٩٤٦
- (٥) المحفوظات الأزهرية . . . . . م ١٩٤٨
- (٦) واجب الشاب العربي . . . . . م ١٩٤٨
- (٧) لمحات عن أبي بكر . . . . . م ١٩٤٨
- (٨) تحقيق كلمة الإخلاص (شرح).
- بالاشتراك مع فضيلة الشيخ محمود خليفة م ١٩٥٠
- (٩) في رحاب الصوفية . . . . . م ١٩٥٠
- (١٠) صفوة التصوف (شرح) . . . . . م ١٩٥٠

## كتب قيمة

من واجبك أن تقرأ هذه الكتب فهي زادك الطيب ورحيقك المصفي :

- ١ — العقل المؤمن : للأستاذ عبد المنعم محمد خلاف
- ٢ — العدالة الاجتماعية في الإسلام : للأستاذ سيد قطب
- ٣ — الإسلام المفقود عليه : للأستاذ محمد الغزالي
- ٤ — فقه السنة : للأستاذ سيد سابق
- ٥ — ماذا خسر العالم بأخطا المسلمين : للأستاذ أبي الحسن علي الحسيني الندوي
- ٦ — فتاوى شرعية وبحوث إسلامية : لمولانا الأستاذ الكبير الشيخ حسين محمد مخلوف مفتي الديار المصرية السابق .
- ٧ — أركان الإسلام الخمسة : للدكتور أحمد يحيى الدرديري
- ٨ — مشاهداتي في جزيرة العرب : للأستاذ أحمد حسين
- ٩ — حماة السلوم : للصاغ محمود بك لبيب
- ١٠ — شفاء الروح : لمحمود بك تيمور
- ١١ — ظلام السجن : للأستاذ محمد علي الطاهر
- ١٢ — عصر الخلفاء الراشدين : للدكتور محمود علي فياض
- ١٣ — نظم الحرب في الإسلام : للأستاذ جمال الدين عياد
- ١٤ — تربية الطفل : للدكتور حامد البدرى الغوابي
- ١٥ — رسائل الدنيا والدين : للأستاذ محمد لبيب البوهي
- ١٦ — حفيف الغابة (ديوان) : للأستاذ قاسم مظهر
- ١٧ — مواكب الذكريات (ديوان) : للأستاذ حسن عبد الله القرشي

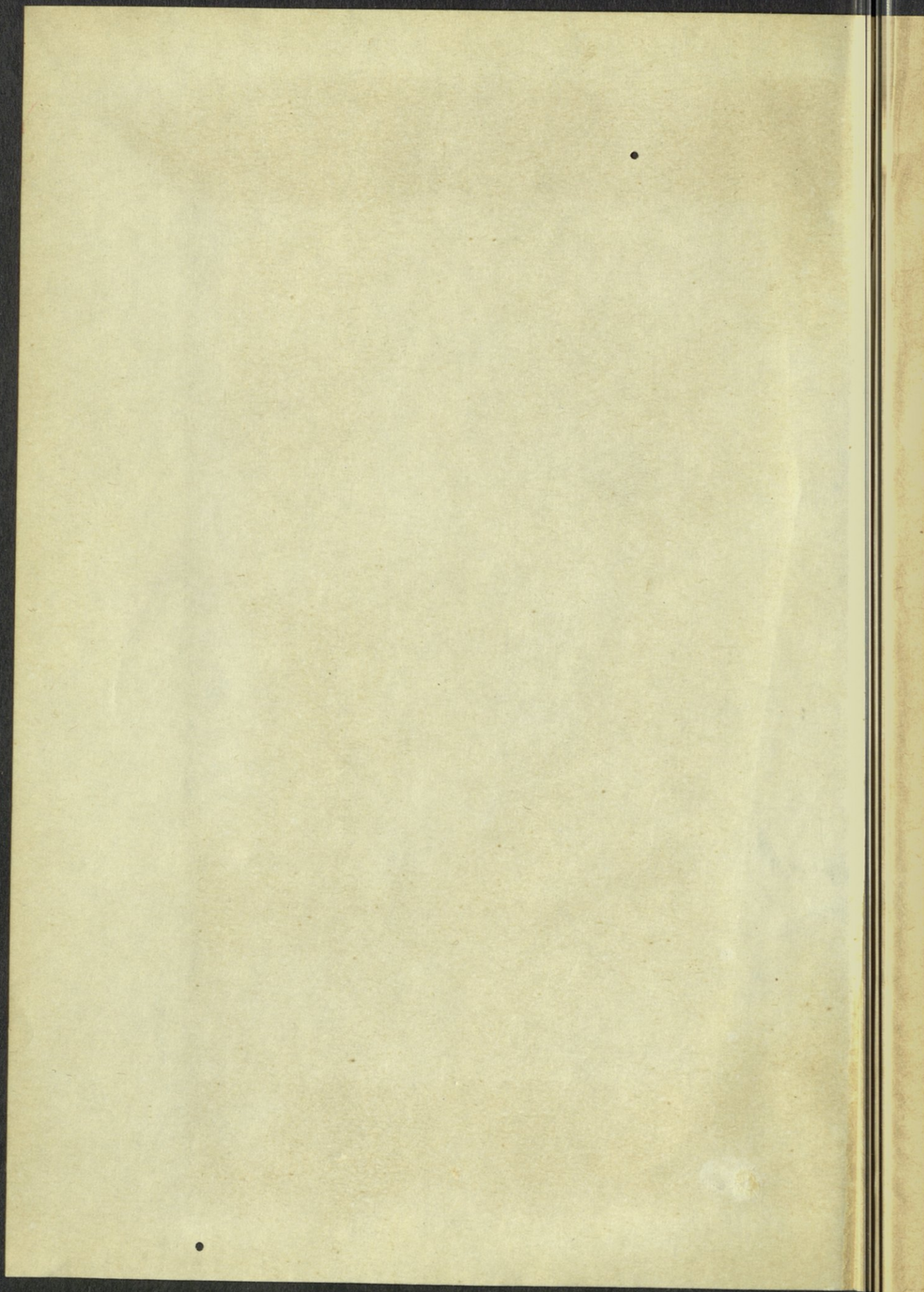
يظهر قريباً للمخوف :

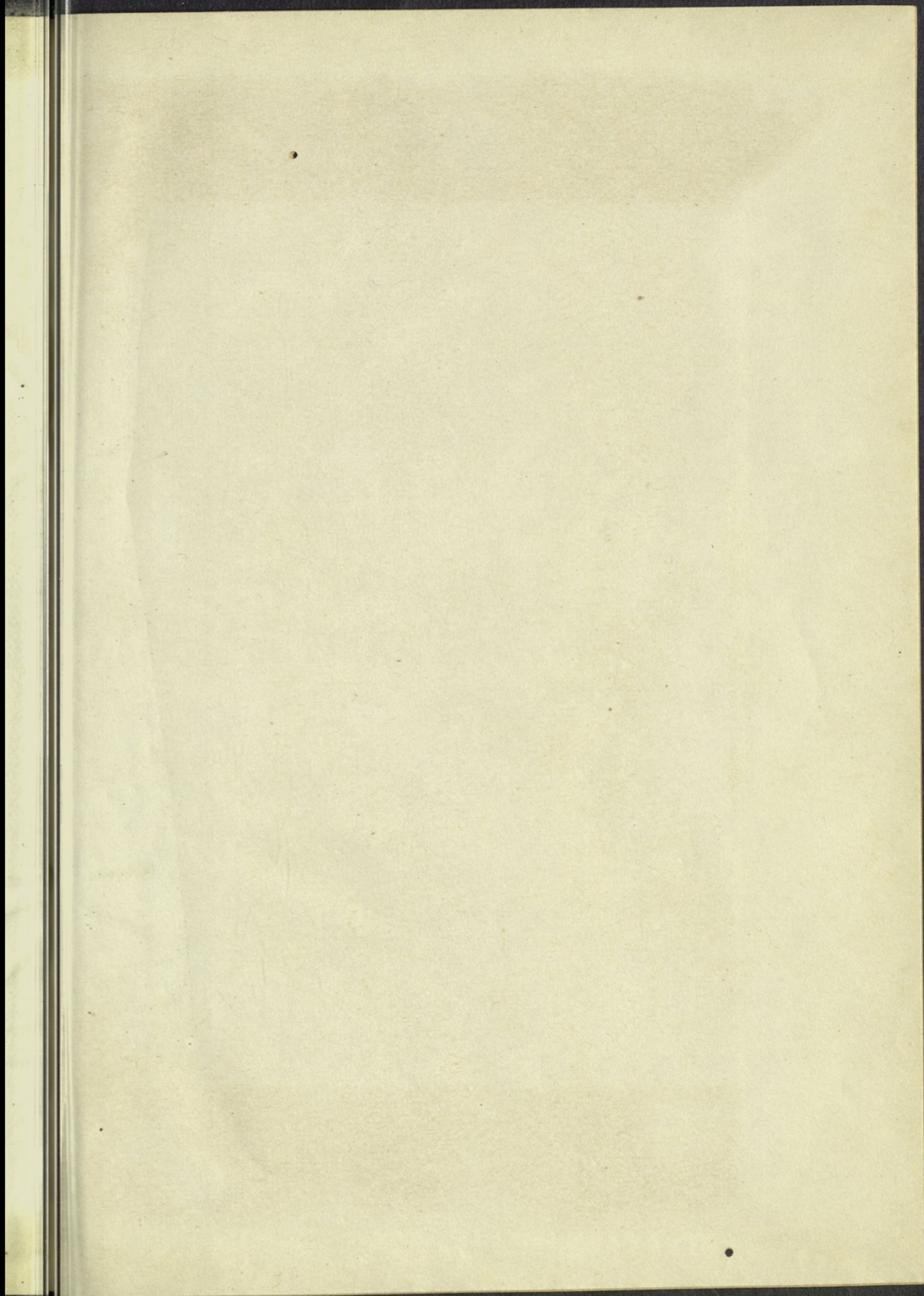
## مذكرات واعظ أسير

مئات من الصفحات تفيض بالحديث عن الإسلام ،  
وأحداث المحنة الكبرى التي منيت بها الفكرة الإسلامية في  
عهود الظلمات ، وتسجيل صادق لأيام الاعتقال بما فيها من  
ذكريات الزملاء ومواقف الأصدقاء وألوان الابتلاء . . .  
يظهر قريباً بمشيئة الله . . . فانتظروه .

• خواتر القاریء

---





916.21:Sh53sA:c.1

الشرباصى ، احمد

صلوات على الشاطئ

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01048421

American University of Beirut



916.21

Sh53sA

General Library

